جبروت امرأة

تأليف

د. نبيل راغب

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



جبروت امرأة

١

عاد سيد الرمادى إلى البدروم الذى يسكنه بمصر القديمة بعد يوم حافل بالمحاضرات فى كلية الحقوق . كان أول يوم تبدأ فيه الدراسة بعد إجازة نصف السنة التى لم يشأ أن يضيعها فى بلدته دار الرماد بالفيوم ، وآثر أن يقبع فى جحره بمصر القديمة يستعد للنصف الثانى من العام الجامعى . فقد كان فى السنة الثالثة و لم يتبق على تخرجه سوى عام واحد فقط . وكان تفوقه حافزا له على المزيد من التحصيل والاجتهاد على أمل أن يعين معيدا بالكلية استعدادا لدرجتى الماجستير والدكتوراه . كانت آماله فى الحياة كبارا برغم ظروفه المالية والأسرية الصعبة . فأبوه قضى حياته فلاحا أجيرا فى خدمة السادة الإقطاعيين و لم تتحسن أحواله إلا عندما أنصفه قانون الإصلاح الزراعى بخمسة فدادين ، وهو الذى لم يمتلك قيراطا واحدا فى حياته جريا على نهج سلسلة أجداده الطويلة من عبيد الأرض .

لكن الفدادين الخمسة لم تكف أسرته المكونة من عشرة أبناء وأطفالهم الذين لا يقلون عن الخمسين . ومع ذلك تسلحوا جميعا بالقناعة الريفية فى مواجهة متطلبات الحياة ، وظلوا يعملون فى الفدادين الخمسة ليل نهار لعلها تمنحهم من الخير أقصى ما يمكن أن تجود به . أما الأب عبد الجليل فقد تمنى أن ينطلق أحد أبنائه ويفك قيود هذه الساقية التى لا تجود إلا

بالقليل من الماء . وبمجرد أن حصل آخر العنقود سيد على شهادة الثانوية العامة بتفوق ، شعر عبد الجليل أن الله قد من عليه أخيرا بتحقيق حلمه القديم فى أن ينتقل أحد أبنائه إلى عالم السيادة . وعندما صارحه ابنه بأنه يود الالتحاق بكلية الحقوق سانده بكل قوته ، وأجبر باقى أبنائه على الرضوخ لقراره على مضض ، ذلك أنهم لم يستريحوا لهذا القرار واعتبروه نوعا من التفرقة فى المعاملة . فسوف يقتطع أبوهم من قوتهم وقوت أطفالهم كى يدرس أخوهم بالجامعة فى القاهرة . ولم يتعاطف منهم مع هذا القرار سوى إبراهيم الأخ الأكبر لسيد . لكن الأب لم يتعود أن يناقشه أحد فى قراراته وخاصة أن بريق كلية الحقوق فى عينيه قد بهره منذ صباه المبكر عندما رأى السادة الإقطاعيين يتخرجون فيها عاما وراء عام ليشتغلوا وزراء وسفراء . وها هى أبواب الكلية قد تفتحت أخيرا أمام ابنه الأصغر فكيف لا يستميت فى اقتناص هذه الفرصة ؟! إنه ليس على استعداد فقط كى يقتطع من قوته وقوت أبنائه ، بل إنه يرحب بأن يقتطع من لحمه ليفوز ابنه بليسانس الحقوق !

وانطلق سيد إلى كلية الحقوق وسط غيرة الإخوة الذين كانوا يودون أن يساعدهم فى الفلاحة والزراعة بعد انتهائه من دراسته الثانوية ، بدلا من أن يتحول إلى عبء إضافى على كاهلهم . لكن سيدا لم يعبأ واستمات فى دراسته محققا حلم أبيه الأثير ، واستطاع أن يجتاز السنتين الأولى والثانية بتفوق . وها هو الآن فى النصف الثانى من السنة الثالثة يستعد لتحقيق أرقام قياسية جديدة فى التفوق الدراسى .

وضع سيد الرمادى هذا الهدف نصب عينيه ليل نهار . ولم ينبهر بأضواء

القاهرة وبناتها الحسان . حتى نرجس الفتاة الجميلة ابنة المعلم حنفى الجزار صاحب البيت الذى يقطن بدرومه ، لم تشتت فكره وعقله بعيدا عن دراسته برغم علاقة الحب القوية التى نمت بينهما منذ بداية التحاقه بالجامعة وسكنه فى البدروم . فقد كانت هذه العلاقة بمثابة العنصر الملطف لحياته الجافة ، وساعدته على المزيد من الإقبال على الحياة ، وعلى مضاعفة جهده وكفاحه ..

كان المعلم حنفى والد نرجس جزارا ميسور الحال ، يعيش فى الدور الأول فوق بدروم سيد مع زوجته الثانية الصغيرة السن ، التى أنجب منها ولدا وبنتا بعد طلاقه من زوجته الأولى التى هربت منه لتعيش مع أحد تجار المخدرات ، الذى ألقى القبض عليه فيما بعد وحكم عليه بالأشغال الشاقة ، و لم يعرف شيئا عن أخبارها بعد ذلك . لكنها كانت قد أنجبت له ابنته الكبرى نرجس التى عاشت فى جحيم أقامته لها نعيمة زوجة أبيها التى أجبرتها على عدم إكمال دراستها وعلى العمل كخادمة لها ولطفليها . وكان الجزار الجبار منقادا تماما لزوجته الصغيرة الجميلة . وابتلعت نرجس طموحها وكبرياءها . وكثيرا ما استسلمت لضرب زوجة أبيها المبرح وسهرت الليالى باكية فى حين لم يحرك أبوها ساكنا .

لم تجد نرجس أمامها سوى سيد القابع فى البدروم لاستذكار محاضراته على مصباح كهربى خافت . أحست أنهما يشتركان فى البؤس ، وعندما تجاذبت معه أطراف الحديث اكتشفت أنهما يشتركان أيضا فى الطموح . بدأت العلاقة بينهما بالابتسامات ثم تحيات الصباح والمساء ثم السلام بالأيدى والحديث السريع العابر عن الآلام والآمال

المشتركة ، ثم القبلات الخاطفة فى ظلام بئر السلم . وهى العلاقة التى ساعدت نرجس على احتمال قسوة زوجة الأب لأن سيدا كان قد وعدها بالزواج بمجرد تخرجه حتى يستطيع أن يعولها . ذلك أن دخله الذى يأتيه من أسرته يكاد يكفى بالكاد إيجار البدروم وثمن الكتب ووجبتين فى اليوم لم تشهدا أكثر من رغيفين وطبق فول أو طعمية .

كان الإجهاد قد ارتسم على وجه سيد الأسمر ، وامتزج التراب بشعره الأكرت الأشعث عندما هبط فى محطة مصر القديمة من أتوبيس حلوان الذى يسلك الطريق الزراعى المترب . كان الوقت عصرا والشمس تشيع الدفء فى الأيام الأخيرة من شهر يناير بعد صقيع ألم بالقاهرة منذ مطلع العام . سار سيد بقامته الطويلة بحذاء البيوت المطلة على الطريق الزراعى ، يستنشق الأتربة الهائجة خلف عجلات سيارات الأجرة والنقل والأتوبيس . كان يرتدى حلته الحائلة اللون التى كانت كحلية عندما اشتراها أبوه وقام بتفصيلها له عند ترزى عجوز بالفيوم ، لكنها أصبحت الآن بلا لون محدد وإن كانت أقرب إلى اللون الرمادى الكالح . لكنه يشعر بإعزاز خاص لحلته الوحيدة التى شاركته دراسته الجامعية منذ بدايتها ، مع حذائه الذى عالجه بكعوب وأنصاف نعال من المطاط حتى بدا وكأنه يتحدى الزمن .

شعر بسعادة دافقة عندما اقترب من المنزل ووجد نرجس تقف قبالته بجمالها الوحشى ، وأنوثتها الغجرية المتفجرة ، وجسدها الخمرى الساخن ، وعينيها الرماديتين ، وعودها الملفوف الرشيق الذى يتناغم مع نحافة سيد . لكن سيدا غرق فى انقباض مفاجئ عندما وجد نرجس تقبل

عليه وفى يدها مظروف صغير داكن الصفرة . قالت وهى تمد يدها بالمظروف :

ـــ كاد القلق يقتلنى فى انتظارك .. لقد وصل هذا التلغراف منذ أكثر من ساعتين ... وكنت على وشك أن أذهب إليك فى الكلية برغم وعيد زوجة أبى ...

دق قلبه بعنف وفتح المظروف بأصابع مرتعشة دون أن يرد ، وإذا بعينيه تجحظان ، وشفتيه ترتعشان ، والورقة تهتز بعنف بين أصابعه ، وبدا كما لو كان على وشك السقوط مع هبات تراب الطريق وصخب السيارات .

سألته نرجس دون تفكير :

ـــ ماذا حدث ؟!

ـــ لقد توفى الوالد ... إنها مصيبة كبرى ... لا أدرى ماذا أفعل ؟!

ـــ شد حيلك .. كلنا لها ..

شعر سيد كأن قدميه قد دقتا إلى الأرض بمسامير وهو ينظر إلى نرجس نظرات زائغة وود لو استند إليها هروبا من الإعياء الذى يجتاحه . سألته :

ـــ ألن تسافر لحضور الجنازة ؟!

شد نفسه من أعماق ضياعه :

ـــ طبعا ... الآن ... وإن كنت أشعر أننى لن ألحق به !!

لم تشأ نرجس أن تضيع وقتا فتمنت لو جذبته من يده نحو البيت ، لكنها أسرعت فتحرك وراءها تلقائيا . وهناك فى البدروم أسرع بإعداد حقيبته القديمة فى حين وقفت نرجس فى بئر السلم ترقبه من بعيد ، عين عليه وعين على باب شقتها حتى تكون على أهبة الاستعداد إذا لمحتها نعيمة زوجة أبيها من عل .

انتهى سيد من إعداد حقيبته دون أن يعى كيف أعدها . خرج مسرعا ملقيا بالسلام على نرجس التى قالت له مشجعة :

— ربنا معك ... تروح وتعود بالسلامة إن شاء الله ...

تمتم بالشكر وخرج مسرعا . كانت الدنيا خارج البيت قد اكتست بصفرة داكنة ، وكأن مظروف البرقية قد أسبغ عليها لونه . تحسس جيبه وتذكر أن النقود تكفى بالكاد مصاريف السفر إلى الفيوم . فقد كان فى انتظار أخيه مصطفى كى يحضر له مبلغا يستعين به على تصريف أموره لشهرين أو ثلاثة ، وبدلا من المبلغ أرسل إليه مصطفى هذه البرقية كرصاصة إلى قلبه . أشار إلى تاكسى لأول مرة فى حياته ، وطلب من السائق التوجه إلى محطة مصر وهو لا يزال يتحسس جيبه . شاركه فى السيارة راكبان مع صوت مذياع تصدر عنه أغنية حزينة جعلت سيدا على وشك البكاء . تابع المرئيات خلف زجاج النافذة بعينين ذاهلتين . فقد فقد القدرة على التفكير تماما . وفجأة استيقظ من ذهوله على صوت السائق معلنا : «محطة مصر يا سيد» رنت فى أذنه كأنه يعرفه بالاسم . نظر إلى العداد ومنح السائق خمسين قرشا فى انتظار أن يرد الباقى ولكن السائق قال بمنتهى الصفاقة :

— هيا يا سيد ... القطار لا ينتظر أحدا !!

لو كان سيد فى حالته الطبيعية لتشاجر معه مشاجرة العمر . لكن سيدا سرعان ما أدرك فى مرارة أنه لو كان فى حالته الطبيعية لما استقل هذا التاكسى أصلا . سار نحو المحطة الضخمة الصاخبة وكأنها تهتز أمام عينيه . وجد نفسه تلقائيا أمام شباك الفيوم الذى يعرفه جيدا . كانت الساعة تقترب من الرابعة والنصف وسأل عن ميعاد أول قطار إلى الفيوم

فقال له الرجل ذو الصلعة المنيرة داخل الغرفة الضيقة : الخامسة وخمس دقائق . قطع سيد التذكرة وظل يذرع الرصيف جيئة وذهابا برغم إعيائه الشديد . رأى المحطة لأول مرة فى ضوء جديد . إنها تشبه الحياة تماما . إليها يصل الناس ومنها يرحلون . ضجيجها يشبه صخب الحياة وسقفها الزجاجى الحديدى يتقوس محاكيا قبة السماء . وها هو الآن راحل عنها تماما مثلما رحل أبوه عن الحياة . تساءل فى نفسه :

« لم يحدد مصطفى فى البرقية ميعاد رحيله ! أيمكن أن يكون قد رحل بالأمس وتم دفنه أيضا ؟! إنه لا يستطيع أن يتخيل الحياة بدون أبيه الذى طالما دلله لأنه آخر العنقود على حد قوله ! » .

تحسس المظروف فى جيبه وأخرجه محاولا قراءة تاريخ ختمه ، لكن معالمه لم تكن واضحة على الإطلاق . أعاده إلى جيبه فى يأس . وسرعان ما تضاعف الضجيج بوصول قطار الفيوم وهو يرج الأرض محتويا صيحات باعة السميط والبيض والجبن وأصوات المسافرين المهرولين يمنة ويسرة . كان القطار خاليا تماما لكنه فى لحظات احتشد بالركاب الداخلين من الأبواب والقافزين من النوافذ . وجد سيد مقعدا خاليا بجوار النافذة فألقى بجسده المنهك عليه . نظر إلى الساعة المثبتة فى جدار المحطة فوجدها تقترب من الخامسة . تمنى لو ينطلق القطار كالصاروخ ليجد نفسه فى الفيوم بعد دقائق ، لكن ما العمل والدقائق تتحرك كأقدام مثقلة بأحذية من رصاص .

أطلق القطار صفارته المدوية التى رددت جدران المحطة أصداءها . خرج رجل مسن يرتدى زيا كحليا رسميا من أحد المكاتب وأشار بيده

اليسرى . دق جرس المحطة وسرعان ما تحرك القطار خارجا من ظلال المحطة إلى حيث الشمس التى تفترش كل الأشياء . حاول سيد النوم لكن الإعياء الذى كثيرا ما منحه الثبات العميق ، حرم عليه مجرد الإغفاءة القصيرة هذه المرة . كما أن مقاعد الدرجة الثالثة الخشبية قد آلمت عظامه هذه المرة برغم أنه لم يركب غيرها من قبل .

توالت المحطات على الجانبين ، واستمرت الهزات مع إيقاع العجلات فوق القضبان . كانت المناظر من نافذة القطار تبهجه من قبل ، لكنها أصبحت الآن مجرد مساحات خضراء لا معنى لها . جلس أمامه رجل شيخ بجلباب رمادى فضفاض ، ذكره وجهه المعروق بأبيه . كانت نظراته تنم عن رغبة فى تجاذب أطراف الحديث دفعا لملل الطريق ، لكن سيدا آثر التقوقع داخل بوتقة خواطره وهواجسه .

ارتسم على وجهه شبح ابتسامة مريرة عندما تذكر حكايات أبيه فى صباه المبكر عندما كان يصطحب السادة أصحاب الأرض كخادم صيد عند ذهابهم إلى بحيرة قارون لصيد البط فى شهر يناير من كل عام . وطالما دعا له أبوه بأن يحقق له الله أحلامه وأن يصبح ابنه فى زمرة هؤلاء السادة ، بدلا من أن يكون فى خدمتهم . وكان دخول سيد كلية الحقوق أول خطوة عملية تبشر بهذا الخير . لكن الأب رحل وهو يعرف جيدا موقف إخوته من مسألة استمراره فى التعليم . هل يستطيع أخوه الأكبر إبراهيم أن يحل محل أبيه فى إقناع إخوته بمساعدته على الاستمرار وخاصة أنه لم يتبق سوى عام واحد ويحصل على ليسانس الحقوق ؟! لكنه يعرف جيدا أن أخاه إبراهيم من النوع الذى يكتفى بالتعبير عن رأيه دون اتخاذ خطوة

حاسمة لإخراجه إلى حيز التنفيذ ! كما أن تأثير الأخ الأكبر لا يمكن أن يكون فى درجة نفوذ الأب وضغوطه .

كان الأب عبد الجليل شخصية قوية مهابة سواء فى أسرته أو عند أهل قريته دار الرماد . لم تعرف الراحة طريقا إلى حياته وكدحه . حتى المرض كان بالنسبة له رفاهية لا يمكن أن تؤدى به إلى التزام الفراش والتغيب عن الحقل . و لم يكن يشكو إلا من آثار بلهارسيا قديمة كان قد عولج منها فى مستشفى الأمراض المتوطنة بالفيوم . لكن يبدو أن هذه الآثار قد قضت عليه أخيرا . صحيح أنه كان قد تجاوز السبعين ، ومع ذلك لم يفكر أحد فى اقتراب أجله لأنه كان منبعا للحيوية والحياة والطاقة والحكمة لكل من حوله . وقد نضب المنبع أخيرا ويبدو أن سيدا سيكون أول من يموت عطشا .

مر قطار فى الاتجاه المضاد لقطار سيد فأحدث ضجيجا كطلقات الرصاص ، وهبات رياح باردة محملة بالأتربة والرمال لفحت وجه سيد لأن زجاج نافذته كان مكسورا وليس هناك مكان آخر خال فى القطار . ضم سيد ياقة الجاكتة لتحميه من لفحات الرياح الباردة ، غاص قليلا فى مقعده ثم غرق مرة أخرى فى خواطره وهواجسه ومخاوفه .

ماذا لو أصر إخوته على رفض مساعدته ؟! هل يعود للفلاحة والزراعة بعد أن أوشك على اجتياز السنة الثالثة فى الكلية بتفوق ؟ إن الموت أهون من أن يرى أبواب المستقبل توصد فى وجهه هكذا فجأة !! كما أن عودته إلى القرية لن تعنى سوى أن يعيش مثل إخوته وأن يموت أيضا مثلهم !! لقد أصبح الموت فى نظره أرحم من مثل هذه الحياة التى لا يمكن

أن تتسع لأحلامه وطموحاته ؟؟ ... لكن حتى لو أجر لهم القراريط التى سيرثها عن أبيه فلن تعود عليه سوى بالملاليم التى لن تقيم أوده فى غربته ! إنه لا يستطيع البعد عن القاهرة ولا يتخيل حياته بدون نرجس !! فهى طموحه متجسدا ! لا ينسى ذلك اليوم الذى قالت له فيه بعد قبلة خاطفة فى بئر السلم إنها إذا كانت قد أعجزتها الظروف عن إكمال تعليمها فعليه أن يعوضها عن ذلك بالوصول إلى أعلى الشهادات وأرفع المناصب ! لكن ماذا يفعل الآن بعد هذا الكابوس الذى جثم فجأة على كاهله !!

بدأ اللون الرمادى يغلف المساحات الصفراءعلى يمين القطار ويساره . كان قد دخل فى حدود محافظة الفيوم فى المنطقة بين العدوة وسيلا واختفت تماما المساحات الخضراء التى أحاطت بالقطار من القاهرة حتى الواسطى . كان صوت عجلات القطار فوق القضبان الممتدة أكثر هدوءا أو غموضا مثل تلك الصحراء المترامية . انتابت سيدا قشعريرة لحقته من التلال الرملية الصاعدة والهابطة تحت أنوار الغروب المتوارية . أضاء القطار مصابيحه لكنها كانت ذابلة فلم تطرد الوحشة والحزن من وجدانه . إنه لا يتخيل دار الرماد بلا أبيه ، بل إنه لا يتخيل الفيوم أو حياته بدونه !! كان السند والحب والحنان والعطف والحزم ! وقف كالسد المنيع أمام أبنائه ليكمل تعليمه ويحقق طموحه .

فجأة توقف القطار وسط الصحراء . لم تكن هناك محطة أو أية أضواء . نظر سيد إلى ساعة الشاب الذى يجلس بجوار الشيخ أمامه فوجدها السابعة . هل هو عطل ؟! هل سيتحرك القطار بعد دقائق أم

أنهم سيقضون الليل بطوله مع الرمال والظلام والصقيع ؟! وماذا عن أبيه؟! ماذا سيقول إخوته وأمه ؟! لن يصدقه أحد إذا قال إن التلغراف وصل متأخرا أو أن القطار تعطل وسط الصحراء ! لماذا لا يريد هذا اليوم الطويل أن ينتهى ؟!

أخرج سيد رأسه من نافذة القطار فلم يجد أية إجابة فى الظلام . عاد إلى مقعده ودون تفكير سأل الشيخ القابع أمامه عن السبب فى تعطيل القطار وكأنه على علم به ، أشاح الشيخ بوجهه المعروق صوب النافذة وتمتم :

ــ علمى علمك .

خجل سيد من سؤاله الساذج وركز عينيه على الأرض الخشبية ذات القضبان الحديدية الرفيعة المتآكلة . لعنة الله على هذا القطار ! لم يترك محطة فى الطريق إلا وتلكأ عندها ؟! لماذا لم يتلكأ قطار الحياة بأبيه حتى يحصل على الليسانس ؟!

أخرج سيد رأسه مرة أخرى من نافذة القطار فرأى فوانيس تتحرك فى الظلام فى منطقة تسبق القطار بمسافة لم يستطع تحديدها . لا بد أنهم عمال إصلاح العطل ! ارتمى على مقعده وخواء الصحراء يملأ أذنيه بصوت الأبدية المرعب . إنه لا يستطيع أن يتنبأ باللحظة التى يعود فيها القطار إلى الحركة ، تماما مثلما لم يكن فى إمكانه تحديد اللحظة التى رحل فيها أبوه !

حاول تركيز تفكيره فى اللحظات التى سيصل فيها إلى دار الرماد . فجأة ومضت فكرة فى ذهنه وسط الظلام المحيط . ماذا لو عرض على

إخوته بيع نصيبه من الأرض والعودة بالمبلغ الكبير إلى القاهرة لإكمال دراسته ؟ لكن من أين يحصلون على هذا المبلغ ؟! إنه على استعداد لتقسيطه لهم . سرى قسط من الراحة في قلبه وإن كان قد شعر بالأسف لأن أباه لم ينجب سوى البنين الذين لا يقل عددهم عن العشرة . وتمنى لو كانت له أخوات ليحصل على ضعف نصيبهن ! إنه الآن لن يحصل على أكثر من نصف فدان فى أرض لا تتميز بالخصوبة .

اهتز القطار وتحرك بطيئا فهبطت السعادة على وجوه المسافرين . سار فى تؤدة حتى بلغت عربة سيد العمال الحاملين للفوانيس والفؤوس والأدوات الحديدية ، والمرتدين ملابس لا يمكن أن تصد عنهم صقيع الصحراء . ومع ذلك كانوا يغنون ويتضاحكون فى سعادة غريبة . ضاعف القطار من سرعته وبعد ربع ساعة كانت أضواء الفيوم تلوح فى الأفق وتدور مع حركة القطار الذى بلغ محطة الفيوم فى تمام الساعة السابعة والنصف .

اختطف سيد حقيبته وسرعان ما كان خارج المحطة يفاوض سائق عربة حنطور لتوصيله إلى دار الرماد ، لكن السائق تمنع بحجة أن الطريق مظلم ووعر على حافة نهر سنورس الذى يسميه الأهالى بحر سنورس . ضاعف سيد الأجر فرضخ السائق لكنه اشترط أن يقود عربته على مهل . سلم سيد أمره لله وقال لنفسه وهو يمتطى المقعد : « يبدو أن مصائب الآخرين أصبحت أسهل مصدر للكسب ! » وتذكر سيد سائق تاكسى القاهرة .

سارت العربة الهوينى وسيد يعد الدقائق وسط ظلام الطريق الضيق

الموازى للنهر الذى بدا وكأنه على وشك الجفاف تحت ضوء القمر المختفى وراء السحب . كانت الحقول على الجانب الأيمن موحشة غامضة حتى مدخل دار الرماد حيث توقفت العربة وأصر السائق على عدم دخول القرية . أعطاه سيد أجره وسار وسط البيوت الصغيرة المغلقة حتى بلغ المقهى الذى جلس عليه بعض الفلاحين يدخنون ويشربون الشاى الأسود الساخن وأمامهم كومة صغيرة من الحطب المشتعل . كانت كلها وجوها مألوفة لسيد لكنه ابتعد مسرعا عن ضوء المقهى توفيرا للوقت والكلام الذى لا جدوى منه .

وقف أمام بيته فدق قلبه فى عنف وكاد أن يقفز من بين ضلوعه . كان المدخل مضاء بفانوس كبير فى حين جلس الجميع فى القاعة الكبيرة خاشعين منصتين لتلاوة القرآن الكريم . ومن خصاص نافذة الغرفة القريبة من المدخل سمع بكاء مكتوما عرف فيه صوت أمه . تأكد أخيرا أنه وصل بعد انتهاء الجنازة . قدم قدما وأخر أخرى ثم عزم ودخل تاركا حقيبته بجوار المقرئ ومحتضنا إخوته الواحد بعد الآخر فانهمرت الدموع منه ومنهم فى صمت بليغ . ثم جلس فى خشوع بجوار أخيه مصطفى الذى كان ميلاده قبله بعام واحد . تجاهل سيد نظراته التى لم يسترح إليها وتذكر تزعمه لحملة مقاومة سفره إلى القاهرة لإكمال تعليمه . أما إخوته فيبدو أنهم قرروا مقاطعته بنظراتهم باستثناء إبراهيم الأخ الأكبر الطيب الذى كان ينظر إليه بعيون حانية أبوية برغم أنه كان من زوجة أبيه الأولى التى أنجبت له أربعة أبناء ثم رحلت عن هذا العالم فى نفس اللحظة التى أتت فيها بالابن الرابع . ثم تزوج أبوه من أمه التى كانت تصغره كثيرا ، فهى

لم تتعد بعد الخامسة والأربعين .

تذكر سيد أنه درس بالكلية أن الزوجة لها ثمن الميراث وبالتالى فهو لن يحصل على نصف فدان كما ظن من قبل ، فنصيبه لن يصل إلى عشرة قراريط بأية حال من الأحوال . ضاقت حوله الحلقات والدوائر فأحس باختناق زاد من الكآبة التى عششت داخله ، والتى حاول التخفيف منها قدر إمكانه بالإنصات إلى الآيات الكريمة .

ختم المقرئ قراءته واستأذن وفى أعقابه تسلل المعزون ومعهم المعزيات اللاتى كن مع أمه فى غرفة المدخل . وعندما لم يتبق فى البيت سوى أهله نهض سيد إلى حيث أمه واحتضنها باكيا ، فقالت له وسط دموعها المنهمرة :

ــ سأل عنك كثيرا فى أيامه الأخيرة ... وعندما أحس بدنو أجله عبر عن رغبته فى رؤيتك .. لكن الموت أدركه قبل أن يراك .. حتى جنازته لم يسر فيها ابنه الحبيب المدلل !!

احتضن سيد أمه وسار بها حيث تجمع الإخوة فى القاعة الكبرى ذات الفرن الخامد والحصير الباهت . جلسا وسطهم على الكراسى الخشبية التى استعاروها من الجيران . فتح مصطفى فمه لأول مرة :

ــ كان الجميع يتساءلون فى الجنازة عن السر فى عدم حضورك يا سيد ؟

أخيرا بدأ الحوار الذى عمل له سيد ألف حساب . قال :

ــ لقد وصلنى التلغراف فى الساعة الرابعة . بعدها كنت فى قطار الخامسة وخمس دقائق . ثم تعطل القطار بعد « العدوة » لمدة لا تقل عن

نصف ساعة . أتعتقد يا مصطفى أننى لم أسر فى الجنازة عن عمد ؟!

تدخل إبراهيم ملطفا الجو :

ـــ على كل حال.. كل واحد وظروفه... لقد مات الوالد مكرما وودعته القرية كلها.. ونحن لن نستطيع أن نمنع سوء الظن عند بعض الناس...

ران الصمت على الجالسين . حتى أمه توقفت عن البكاء . بدأ الخوف من المستقبل يحل داخل سيد محل حزنه على أبيه الذى لم يعد يخاف شيئا فى راحته الأبدية . فالموتى لا يعانون أية مشكلة . أما مشكلته هو بل معضلته هى فى كيفية مفاتحة إخوته فى مسألة استمرار مساعدته للدراسة على أحسن الفروض أو فى مسألة تأجيره أو بيعه لنصيبه على أسوأ الفروض . لكن المجال لم يكن يسمح بأية مفاتحة عاجلة حتى لا يظن أحد أنه جاء من أجل ذلك خصيصا .

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل فنهض يوسف الأخ الرابع قائلا :

ـــ الصباح رباح ... فلنؤجل الأحاديث إلى الغد ... لقد تعبنا اليوم بما فيه الكفاية ... فلنذهب إلى النوم ... فغدا وبعد غد سنستقبل المزيد من المعزين ...

كان سيد يأمل أن يعود إلى القاهرة ونرجس بأسرع ما يمكن لكن يبدو أن وجوده سيطول ، إذ لا بد من حسم موضوع دراسته قبل عودته .

نهض الإخوة . خرج بعضهم إلى منازلهم فى حين دخل البعض الآخر غرف نومهم فى البيت الكبير . وفى الخارج سمع عواء بعض الذئاب بعيدا ممتزجا بنباح الكلاب التى تذرع الطرقات جيئة وذهابا دون أن يكلفها أحد بهذه المهمة .

٢

برغم الإعياء لم ينم سيد ليلته . علا شخير أهل البيت فى إيقاع منتظم فى حين لم تبرد جثة صاحبه فى قبره بعد . حاول سيد طرد جحافل الأفكار السوداء التى عششت فى مخه مثل النمل ، لكنه لم يظفر سوى بلحظات من الإغفاء رأى فيها صورا مختلطة متداخلة . رفع مصطفى هراوة ضخمة وهبط بها على رأسه فتنبه مذعورا . أمسكت نرجس بسكين أبيها وانهالت بها على زوجة أبيها و لم يمنعها إلا بعد فوات الأوان فاستيقظ مكتئبا . قال له أبوه على فراش الموت : « الويل كل الويل له من إخوته من بعده » . فنهض على وشك البكاء .

عندئذ فضل نار اليقظة على جنة الإغفاءة ، حتى سمع صياح الديك فأدرك أنه الفجر . كان السكون سلطان المكان ، لم يقطعه سوى هدير السواقى البعيدة التى تدور من تلقاء نفسها بقوة دفع المياه فى بحر سنورس والتى يقول أهل القرية عنها إنها تدور منذ دخول سيدنا يوسف أرض مصر .

كانت نافذة غرفة سيد قريبة من الطريق الزراعى فسمع خوار الماشية ونهيق الحمير ونباح الكلاب يعلو رويدا رويدا فى الطريق إلى الحقول . نهض جالسا متحسسا جلبابه فى حنان . فقد كان هدية نرجس له فى عيد

ميلاده .بدت نرجس وكأنها تعيش على كوكب آخر برغم أن الفيوم من أقرب المحافظات إلى القاهرة . المخيف أن القرار الذى سيصل إليه مع أسرته لن يؤثر على مستقبله الدراسي فحسب ، بل سيمس علاقته بنرجس التى أقسم أبوها على أن تتزوج من أفندى محترم يليق بمكانته كصاحب أكبر محل جزارة فى اسطبل عنتر .

تذكر سيد أنه لم يذق طعاما منذ صباح أمس ، ومع ذلك لم تكن لديه أدنى رغبة فى الطعام . إنه لن يكون نحيفا أكثر مما هو عليه الآن . نهض من فراشه وتوضأ وصلى الفجر ودعا الله أن يوفقه فأحس ببرد الراحة يسرى فى بعض أحشائه الملتهبة . كان كل من فى المنزل لا يزال نائما ففتح نافذة غرفته برغم صقيع الصباح . ظهرت الشمس خلف الحقول والنخيل الذى تجرد من كل ثماره . إن الشمس التى تشرق له الآن ، تشرق فى الوقت نفسه على نرجس .

شعر بحركة عند الباب فوجد أمه واقفة فهرع وأجلسها على سريره ... قالت له بصوت واهن :

ــ لا بد أنك لم تذق طعاما منذ أمس . سأحضر لك الصينية التى جهزها لنا الجيران بكل خيرات الله .

همت بترك السرير ولكن سيدا منعها بالقوة :

ــ ليست لى أدنى شهية يا أماه . إن كل ما يشغلنى الآن بعد حزنى على الوالد ... هو مستقبلى !

ــ ربنا يستر يا بنى ... فأنت تعرف رأى إخوتك جيدا !

ــ وخصوصا مصطفى !

نظر الاثنان تلقائيا إلى الباب عندما سمعا صوتا متسائلا :

— ماله مصطفى ؟!

كان مصطفى واقفا بالباب بالطاقية والجلباب وآثار النعاس لا تزال على وجهه . استدركت الأم بقولها :

— كنا فى سيرتك بكل خير !

— هكذا فى الفجر !!

شعر سيد بنذر الشر تتطاير فى الغرفة فانتهز الفرصة لفتح الموضوع وحسمه بأسرع ما يمكن . فمن المحتمل أن يترك إخوته قضيته دون حسم ، فهى ليست قضيتهم على أقل تقدير . قال سيد لمصطفى :

— كنت أتكلم مع الوالدة بخصوص دراستى فى الجامعة التى لم يتبق عليها سوى عام واحد وتنتهى ..

تقدم مصطفى ووقف بجوار النافذة المفتوحة وقال لأخيه :

— وفقك الله .. فلم يمنعك أحد من إكمال دراستك !

سعد سيد ومعه أمه بالرد الذى لم يتوقع أن يأتى بهذه البساطة :

— كنت أدرك جيدا أنك نعم الأخ الذى لا يمكن أن يتخلى عن أخيه !!

أدرك مصطفى مغزى كلامه فأراد أن يضع النقط على الحروف :

— لم يكن محصول البلح والتين والعنب فى الصيف الماضى كما نتوقع ... وقد دخل الأولاد المدارس وأصبحنا غير قادرين على الوفاء بالتزاماتنا نحوهم .. وبودى لو يعملوا معنا فى الزراعة بعد الابتدائى ..

آه ... لقد وقع كل ما كان يخاف منه ... لكنه واصل الصمود :

ــ وماذا عن وصية المرحوم الوالد بخصوص إكمال دراستى !؟

ــ قلت إن أحدا لم ولن يمنعك من إكمال دراستك !!

سئم سيد من مناورات أخيه الخبيثة فواجهه :

ــ وكيف أكمل دراستى بدون دخل يساعدنى على ذلك ؟!

ــ لقد عودنا الوالد الاعتماد على النفس !

ــ وكيف أعتمد على نفسى وكل وقتى مخصص للدراسة !!

ــ فى كليتك موظفون منتسبون ... و لم تمنعهم الدراسة من كسب لقمتهم !!

توهج التحدى داخل سيد . وقف بجوار مصطفى قائلا :

ــ لا تنس أننى سأرث مثلك تماما !!

ــ لم أنس ... لكنك أنت الذى نسيت أن هذه الأرض فى حاجة إلى عرق مستمر حتى تؤتى ثمارها ... إنك لا تستطيع فلاحتها وأنت فى القاهرة ...

ــ ولكننى أستطيع تأجيرها وأنا فى القاهرة !

ــ تأجيرها لن يعولك وأنت فى القاهرة ... فهى قراريط قليلة كما أنك لا تعرف كم ارتفع الأجر اليومى لعمال الزراعة ؟!

ــ لا تحاول تعجيزى ... سأبيعها على أسوأ الفروض !!

ــ لذا ... ستبيعها بالتقسيط !

ــ أرضى .. وأنا حر فيها !

ــ لن نسمح بغريب يدخل بيننا !!

أحست الأم بعدم قدرتها على تحمل الموقف المتأزم فغادرت السرير

والغرفة متسللة فى صمت فى حين قال سيد :

ـــ لم أمنع أحدكم من شرائها ؟!

ـــ ليس بيننا من يستطيع دفع ثمنها دفعا فوريا !!

ـــ سرعان ما اتفقتم فيما بينكم ؟!

ـــ لم نتفق على شيء !! ولا نحب أن نسمع منك مثل هذا الكلام بعد أن أخذنا اللقمة من أفواه أولادنا لتكمل دراستك !!

ـــ وسأكملها دون أن يمنّ عليّ أحد !

ـــ إذا ليس هناك مجال للخلاف !

قالها مصطفى ودار حول الفراش خارجا من الغرفة ، تاركا أخاه وحده . ظل سيد يتأمل الشمس الصاعدة تدريجا فوق الحقول المترامية ، متعجبا من أمر نفسه . كيف هانت عليه الأرض التى ورثها عن أبيه بهذه البساطة وبهذه السرعة ؟! عموما إذا باعها فإنه سيبيعها إلى إخوته ! لكن بيعها يعنى اقتلاع جذوره نهائيا من القرية التى ولد وعاش فيها حتى دخوله الجامعة ! ومع ذلك فإنه يشعر أن انتماءه الحقيقى إلى القاهرة ونرجس وليس إلى دار الرماد وأسرته . لم يعد لديه ما يربطه بهذه القرية الخامدة التى لم تتغير من آلاف السنين . نفس التخلف والفقر والخزعبلات والأمراض التى كان أبوه آخر ضحاياها . حتى أمه التى عاشت فى كنف أبيه منذ أن تزوجها وهى صبية لا تدرى عن حياتها شيئا !! ليس لها رأى فى أى شيء ! وإذا تكلمت فإنها توافق جميع الأطراف المتنازعة ! وإذا صمتت فإنها تستعد للتسلل بعيدا عن الأزمات كما فعلت الآن عندما توتر الموقف بينه وبين مصطفى . إنه يحبها ويعزها فهى أمه على

كل حال . ولكن ما الدور الذى يمكن أن تقوم به فى حياته ؟! ..

دخلت أمه حاملة الصينية ووضعتها فى صمت على فراشه، و لم يشعر بها إلا عندما سمع حفيف ثوبها الأسود الطويل على بلاط الغرفة الخشن وهى خارجة دون أن تنبس ببنت شفة . نظر إلى الصينية النحاسية الكبيرة وقد تربع عليها الفطير المشلتت والجبن القريش وعسل النحل وكوب كبير من الشاى الأسود وسلطانية لبن زبادى من الفخار . سال لعابه وندم على عدم قضاء بضعة أيام من إجازة نصف السنة فى قريته ليرحم نفسه من الفول والطعمية ! لكنه سرعان ما تذكر أن ما فوق الصينية ليس طعام البيت المعتاد ، وإنما منحة من الجيران .

تربع فوق الفراش أمام الصينية مقتطعا لقمة من الفطير ، مزجها بقطعة جبن . لكن انهماكه فى تناول الطعام لم يمنعه من الاستمرار فى أفكاره المتلاطمة . إنه يدرك جيدا أن أخاه مصطفى يكن له كل غيرة قاتلة ، ليس فقط لأنه يحاول ويصر على إكمال تعليمه فى حين توقف هو بعد المرحلة الابتدائية ، وإنما لأنه رأى نرجس عندما زاره فى بدروم مصر القديمة فى أواخر السنة الأولى له فى الكلية وقارن بين جمالها وسحرها وبين قبح زوجته التى أجبره أبوه على الزواج منها لمجرد أنه منح أباها وعدا بذلك . فقد كانت ابنة عمه . كان مصطفى قد جاء إلى القاهرة لشراء بعض حاجيات الأسرة وتوصيل المصروف إلى سيد ، لكنه فوجـئ بالزائدة الدودية فدخل قصر العينى وأجريت العملية له ، ثم قضى فترة النقاهة فى بدروم أخيه الذى لم يلق منه سوى كل حب ورعاية . لكن نظراته إلى نرجس لم تكن مريحة على الإطلاق كلما مرت ببابه تسأله أية خدمة يمكن أن

تؤديها له . سأله عنها مرارا وبطرق مختلفة لكنه لم يظفر منه سوى بقوله المقتضب : إنها ابنة صاحب البيت وكنت قد ساعدتها فى دروسها ! لكن مصطفى لم يصدق . فقد قرأ فى نظرات نرجس وحركاتها كل ما يفتقده فى زوجته التى لا تختلف كثيرا فى مظهرها وسلوكها عن خفراء دار الرماد . سيحاربه مصطفى وخلفه إخوته الذين يبدو أنهم تضامنوا معه بصمتهم ، لكنه لن يستسلم بسهولة . وإن كان كل شىء فى سبيل الليسانس ونرجس يهون .

انتهى سيد من طعامه واسترخى قليلا فى فراشه ، لكنه سرعان ما سمع حركة عادية فى القاعة الكبيرة فنهض وخرج فوجد عمه سند الذى زوج ابنته لأخيه مصطفى وخاله حسنين . سلم عليهما فى حرارة واحتضنهما وجلس بينهما . كان خاله حسنين من أصحاب الأراضى ذوى الدخل المعقول الذى مكنه من مساعدة ابنه فى أن يتخرج فى كلية الزراعة وأن يعود لمساعدة أبيه فى فلاحة الأرض بأحدث الأساليب التى تعلمها . دون تفكير قرر سيد أن يعرض قضيته على خاله لعله يساعده دون أن يفرط فى أرضه ، وذلك على أساس أن يرد له كل المساعدات بعد التخرج وحتى بالفوائد إذا طلب . لكن خاله بعد أن أستمع إليه بتمعن مريح وهو يصب فى أذنه همساته الراجية الملحة ، أجابه بنصيحة ذهبية مفادها أن الرجولة الحقيقية هى الاعتماد على النفس .

لم ييأس سيد بل وجد نفسه دون تفكير أيضا يميل على أذن عمه سند ويفضى إليه بقضيته . لكن نصيحة خاله الذهبية المتمعنة تحولت إلى حجر انطلق من فم عمه ليصيب رأس سيد . قال له وقد تجهم فجأة إنه

بدلا من أن يرافق البنات الغانيات فى القاهرة عليه أن يعود إلى مسقط رأسه ليعاون إخوته فى العمل الشاق . أحس سيد بدوار لكنه تمالك نفسه . إذا فقد فضحه مصطفى عند حماه ، ويبدو أنه فضحه عند القرية كلها ؟! إنه لم يفعل شيئا يستحق عليه اللوم والتقريع ! اللهم إذا كان جزاء الحب الطاهر الشريف اللوم والتقريع ؟! إن نرجس ليست من الغانيات . بل هى أشرف منكم جميعا يا من تظنون أنفسكم حكماء العصر وفلاسفة الغبراء . إنكم لستم سوى حشرات تعيش وتموت دون أن يدرى بوجودها أحد . اللعنة عليكم وعلى كل ما يربطنى بكم . فلتذهب الأرض نفسها إلى الجحيم إذا كانت السبب فى ارتباطى بكم . سأفرط فيها بأبخس الأثمان ، فلم يتبق لى سوى عام واحد وأخرج من عنق الزجاجة .

التزم سيد الصمت تماما . توافد المعزون من الأقارب والجيران والأصدقاء حتى امتلأت القاعة ، فى حين دخلت النسوة لابسات السواد كالغربان ، غرفة أمه . وجد سيد مكانا شاغرا بجوار أخيه مصطفى فقام وشغله بعد أن قرر حسم الموضوع بطريقة أو بأخرى . فقد أصبح وجوده فى هذه القرية بلا معنى على الإطلاق . مال على أذن أخيه قائلا فى همس :

ــ لقد قررت بيع نصيبى من الأرض .. وبالتقسيط ... فكل يوم أقضيه هنا يضيع على فى الجامعة ..

أجاب مصطفى مصطنعا الحكمة والروية :

ــ إنك لن تستطيع مغادرة البلد قبل اليوم الثالث .. كما أن أمر البيع والشراء ليس بالسرعة التى تتصورها . فالميراث لم يقسم بعد .. والقسط

الأول الذى سندفعه لك يحتاج منا إلى سلفة

— وكم سيستغرق هذا ؟!

— لا أعرف على وجه التحديد !

— تقريبا !

— عمليات التقسيم والتسجيل وضرائب التركات لا تستغرق أقل من عدة شهور ...

— أى تستمر لما بعد امتحان آخر العام ؟!

لم يرد مصطفى بل أشاح بوجهه بعيدا . شعر سيد بالخطر يحدق به من كل مكان . حتى بيع أرضه وبالتقسيط لم يكن بالسهولة التى تصورها . صحيح أنه درس إجراءاتها القانونية فى الكلية ، وصحيح أنه يعرف بطء الإجراءات البيروقراطية ، لكنه لا يتصور أن تقف كل هذه العوامل فى وجه دخوله الامتحان بعد أن انقطع عنه النبع الذى كان يمده بالحياة والمستقبل . اجتاحته أمواج الذل والخنوع ولعن اليوم الذى أصبح فيه تحت رحمة مصطفى وأمثاله . حياه أخوه الأكبر إبراهيم الذى كان يجلس قبالته بوضع يده على صدره ، فرد التحية كتأدية واجب ثقيل ، إذ ما قيمة الطيبة إذا لم تكن مشمولة بالنفاذ ، فى حين أن الغيرة القاتلة تكاد تقضى عليه تماما . إن كفته ليست راجحة وعليه أن يتمسكن حتى يتمكن . سأل أخاه فى رقة بالغة :

— هل أستطيع أن أكتب لك مبايعة فى مقابل القسط الأول حتى يمكننى العودة واستئناف الدراسة ؟!

قال مصطفى بنفس الجدية المقتضبة :

ـــ هذا إذا رحب الناس بتسليفنا حتى يكمل القسط ؟!

ـــ وما قدر هذا القسط ؟!

ـــ لا يمكن أن يزيد على مئة جنيه .

ـــ ومتى يحين القسط الثانى ؟!

ـــ ليس قبل المحصول الجديد ...

ـــ أى ليس قبل عشرة شهور ؟!

ـــ تقريبا !

ـــ هذا يعنى أن علىّ أن أعيش بعشرة جنيهات شهريا ؟!

ـــ تقريبا !

ـــ موافق ..

ـــ يجب ألا تبدو بهذه العجلة أمام الناس ! ماذا سيكون رأيهم فينا إذا لاحظوا لهفتك على العودة إلى القاهرة ؟!

ـــ فليذهبوا جميعا إلى الجحيم .. كلهم يجرون وراء مصالحهم . وإذا تعلق الأمر بالآخرين فإن التشدق بالواجبات والمثل العليا والأخلاق الحميدة يصبح النغمة المفضلة ـــ موجز القول : لن ينفعنى أحد إذا فشلت فى دراستى .

لم يرد مصطفى لكن سيدا أصر على إجابة واضحة :

ـــ متى سأحصل على القسط الأول ؟!

ـــ سأحاول بأسرع ما يمكن ...

كان سيد يدرك تماما أن مصطفى يملك المبلغ . فهو من النوع الحريص الجشع الذى يرغب فى الاستيلاء على الأرض كلها إذا أمكنه هذا . وقد

حاول تشجيع أخيه يوسف على الهجرة إلى إحدى الدول العربية للعمل هناك لكنه فشل فى مهمته . والآن جاءته أرض سيد على طبق من فضة ولا شك أنه اعتبرها فاتحة خير للمزيد من ابتلاع الأنصبة الأخرى .

وصدقت ظنون سيد . فى المساء أحضر مصطفى المبلغ . وبعد خروج المعزين كتب سيد تنازلا عن نصيبه لأخيه مصطفى فى حضور الإخوة كلهم ، وذلك مقابل تقسيط الثمن الإجمالى الذى سيحدده الخبير على خمس سنوات بواقع قسطين كل عام : أحدهما فى أوله وثانيهما فى منتصفه .

لأول مرة منذ تسلمه البرقية من نرجس يشعر سيد بالطمأنينة عندما استلم الجنيهات المئة التى وضعها فى جيب صديرى جلبابه البلدى الداكن . دخل غرفة نومه وقد طار قلبه إلى القاهرة ونرجس والكلية . لبس جلباب النوم وهو يفكر فى لحظة وصوله إلى مصر القديمة . استرخى فى فراشه وقد تدثر باللحاف الذى فقد لونه تماما و لم تعد صفة مميزة له سوى البراغيث التى لا تفارقه ، والتى اعتاد عليها أيضا فى بدروم مصر القديمة بحيث لم يعد يشعر بلدغاتها .

سيذهب إلى مكتب بريد مصر القديمة ليضع المبلغ فى دفتر توفير البريد بمجرد وصوله غدا إلى القاهرة . إن حياته معلقة بهذا المبلغ ولن يحصل على غيره قبل عشرة شهور .. وعليه أن يحافظ عليه كما يحافظ على حياته نفسها . اجتاحته رغبته المشتعلة لعناق نرجس وتقبيلها فى بئر السلم . كانت هذه الرغبة قد ماتت تماما داخله بمجرد تسلمه البرقية المشئومة ، لكن بمجرد تسلمه المبلغ عادت إليه الرغبة كأشد ما تكون إلى أن داعب

النوم جفونه فنام وهو يتمنى ألا يصاب بأى مرض طوال الشهور العشرة . فالمرض رفاهية لا يقدر على مصاريفها .

استيقظ مع الفجر وضجيج الماشية فى طريقها إلى الحقول . غسل وجهه وارتدى ملابسه وانتهى من إعداد حقيبته واطمأن إلى وضع المبلغ فى جيب جاكتته الداخلى . فكر فى إيقاظ أمه وتوديعها ، فهى الوحيدة التى تهمه فى هذا البيت . وقبل أن يتحرك وجدها واقفة بالباب والدموع تنهمر من عينيها قائلة :

ـــ هل نويت يا بنى ؟!

ـــ ليس لدى وقت أضيعه يامًّا ..

ـــ تصحبك السلامة ..

هذه المرأة لا تملك فى دنياها سوى البكاء والدعاء . قال :

ـــ الله يسلمك يامًّا ..

احتضنها وقبل منديل رأسها الأسود ثم خرج مسرعا إلى الطريق وهو يمسك حقيبته باليمنى ويتحسس حافظته المتخمة باليسرى . لم يكن يحب فى القرية سوى هواء فجرها النقى . حتى رائحة البهائم كانت لها نكهة خاصة محببة إلى خياشيمه . وسار منتصبا بقامته الطويلة النحيفة . كان سعيدا بالحل السريع الذى حققه ، وقرر أن يذهب إلى الفيوم سيرا على الأقدام ، فلا مفر من توفير كل مليم للمرحلة الحرجة القادمة .

تفادى تحيات الفلاحين الذاهبين إلى حقولهم . حتى السواق التى تدور بدفع المياه فى بحر سنورس والتى أدمن مشاهدتها فى طفولته وصباه ، لم يتوقف عندها كعادته حتى لا يصطاده أحد الأهالى لحديث فارغ

لا جدوى منه . عجيب أمر أهالى الفيوم . إنهم من الطموح بحيث يرفضون أن يقولوا نهر سنورس ونهر يوسف .. إلخ .. إنها فى نظرهم بحار . ولذلك فالفيوم مليئة بالبحار فى حين أنها لا تطل على بحر واحد . أما بحيرة قارون فقد سمع عنها سيد الكثير من أبيه وخاصة عندما كان فى شبابه المبكر فى صحبة السادة أصحاب الأرض فى موسم صيد البط فى شهرى ديسمبر ويناير . أما سيد فلم يكن يملك القدرة على الاشتراك فى رحلات المدرسة الثانوية إلى البحيرة . ولذلك فهو لم يرها حتى الآن . وأصبحت من أمنياته بعد حصوله على وظيفة مرموقة فى أعقاب نجاحه فى الليسانس . بل إن طموحه كان يشتط به أحيانا لدرجة أنه يتخيل نفسه ضمن السادة المشتركين فى مهرجان الصيد .

بلغ سيد مزلقان القطار الذاهب إلى سنورس . سار بحذاء القضبان الحديدية فى اتجاه محطة الفيوم التى بلغها فى تمام السابعة صباحا . أمام شباك التذاكر تحسس حافظته . كان قد استقطع خمسة جنيهات من المبلغ الإجمالى حتى لا يبرزه فيلحظه نشال يمكن أن يتتبعه . كثيرا ما حذره أبوه من النشالين فى المحطات والقطارات والأتوبيسات . إنهم يسرقون الكحل من العين على حد قوله . وهو يمكن أن يتصور نفسه تحت عجلات قطار أو أتوبيس ولا يتخيل نفسه وقد سرق منه المبلغ .

كان ميعاد القطار فى الثامنة وعشر دقائق . سأل عنه فعرف أنه رابض بجوار أحد الأرصفة . لم يكن مزدحما عندما ركبه.استرخى فى مقعده ، تحسس حافظته وترك نفسه لأحلام القاهرة ونرجس والمستقبل .

٣

وقفت نرجس خلف خصاص نافذتها منذ الصباح على أمل أن تلحظ سيدا الذى سافر و لم يعد ولا تعرف متى يعود ؟! هل يمكن أن يؤثر عليه إخوته ويقنعوه بالاستقرار فى بلدتهم ؟! مستحيل . فقد أشعلت جذوة طموحه من جذوتها التى أخمدتها زوجة أبيها . لم تعرف سببا حقيقيا لقلقها على الرغم من أنه لم يحدد لها موعدا لعودته ، بل إنها تعلم أن إقامته هناك يمكن أن تمتد أسبوعا بأكمله . ومع ذلك فهى تقتنص أية فرصة تكون فيها زوجة أبيها مشغولة بطفليها ، لتراقب مدخل البيت من خلال نافذتها المغلقة . فجأة انتفضت نرجس على صوت حاد منطلق كالحمم من باب غرفتها :

— ألم تشبعى وقوفا خلف النافذة ؟!

التفتت نرجس وبريق عينيها الرماديتين يشع بالخوف والقلق :

— أبدا .. أبدا .. كنت فى انتظار بائع الخبز !!

— الصحون القذرة تملأ الحوض .. وأنت تنتظرين بائع الخبز على أحر من جمر !! تفضلى أمامى يا ست الحسن والجمال وإلا جعلت يومك كلون عينيك !!

كانت نعيمة زوجة أبيها تمقت عينيها الجميلتين وتود لو أصابهما

العمى . وكانت نرجس تدرك هذا جيدا وتعتبره أكبر دليل على جمال عينيها . تحركت حتى اقتربت من زوجة أبيها التى سدت الباب ، ثم توقفت خوفا من أن تصفعها أو تركلها كعادتها . كانت قوية ، ضخمة الحجم ، متينة البنيان ، تكاد تبرز عضلات ذراعيها المفتولة تحت فستانها الكستور ، أما وجهها القابع تحت منديلها الأحمر المحلى بالترتر فلم يكن يخلو من جمال نضر . فقد كان الفارق فى السن بين نعيمة ونرجس عشر سنوات فقط . كانت نعيمة فى الثامنة والعشرين فى حين تجاوز زوجها المعلم حنفى الخامسة والأربعين .

أخلت نعيمة الباب فمرقت منه نرجس إلى المطبخ حيث صحون العشاء والغداء تتربع فوق الحوض . فتحت الحنفية وأجرت الصابون عليها . لكن انشغالها بالعملية لم يخفف قبضة القلق على قلبها . أتحبه إلى هذا الحد الذى لا تستطيع عنده الابتعاد عنه أكثر من يومين ؟! كانت تسمع عن الحب من زميلاتها فى المدرسة ، لكنها لم تعرفه إلا عندما عرفته ! أصبح كل شىء فى حياتها ! كان يمكن أن تنتحر يوم أجبرتها زوجة أبيها على ترك المدرسة للعمل خادمة لها بالمنزل ، لكن وجوده هون عليها هذه الصدمة على أمل أن تنتقل إلى بيته ، زوجة له فى يوم من الأيام . حتى الصفعات والركلات لم تكن تشعر بها لمجرد التفكير فيه . أما فى الليل قبل أن تنام ، فسرعان ما كانت دموعها تتوقف عندما تتذكر نظراته ولمساته وقبلاته فى ظلام بئر السلم . هذا المكان الزاخر بالصراصير والفئران والرطوبة ونشع المجارى وروائح العفن . هو الجنة بعينها فى نظرها . لم تكن تنام إلا عندما تغمض عينيها وتتذكر شفتيه مطبقتين على

شفتيها . ماذا لو رأت نعيمة هذا المنظر ؟! من الممكن أن تقتلها ضربا ! لكن ماذا يهم ؟! إنها لا يمكن أن تخسر أكثر مما خسرت ! هربت أمها مع تاجر مخدرات و لم تعد تعرف عنها شيئا ! أما أبوها فليس لديه سوى محل الجزارة وسهرات الحشيش وتلبية طلبات الست نعيمة التى تمارس عليها أبشع أنواع الإذلال دون أن يسألها عما تفعله مجرد سؤال .

وضعت نرجس طبقا من الصينى على حافة المائدة المجاورة للحوض فانزلق مهشما على بلاط المطبخ . جاءت نعيمة على صوت الطبق المهشم فوجدت نرجس وقد انحنت عليه تجمع أشلاءه المتناثرة بيدين مرتعشتين . لاحظت نعيمة تناسق جسدها الجميل ومنحنياته البديعة فركلتها بالشبشب بحيث سقطت على وجهها صارخة عندما آلمتها قطعة من الطبق خدشت وجنتها . وقبل أن تحاول النهوض تكفلت الركلات المتتابعة بإلقائها على قطع الطبق المتناثرة ، فتركت نفسها تنام عليها مخفية وجهها بذراعها خشية أن تصيبه إحدى الركلات . أخيرا فتحت نعيمة فمها :

ـــ هذا لكى لا تسرحى بفكرك مع بائع الخبز مرة أخرى ؟!

غادرت نعيمة الموقع بعد انتهاء المعركة . رفعت نرجس رأسها فوجدت فأرا صغيرا ينظر إليها من الزاوية المظلمة ، وكأن عينيه تشعان بالتعاطف معها . بدأت تشعر بآلام الركلات فى جانبها الأيمن وظهرها وفخذها وكتفها . ضغطت على آلامها ونهضت باكية . عادت إلى غسيل الصحون وسرعان ما توقفت الدموع بمجرد أن ارتسمت صورة سيد أمام مخيلتها .

انتهت من الغسيل . جمعت قطع الطبق المهشم وألقت بها فى سلة القمامة . سارت فى صمت حتى غرفة نومها وألقت بنظرة سريعة من وراء النافذة فلم تجد ظلا له . جلست فوق الوسادة على حافة الفراش بحيث لا تلحظ نعيمة أنها تتابع الشارع من جلستها . تحسست مواقع الكدمات التى أحدثتها قدم نعيمة وتذكرت حنان سيد عندما قال لها إنه يتمنى تقبيل كل جزء فى جسدها الجميل تصفعه زوجة أبيها أو تركله . وكثيرا ما فعل كلما واتته الفرصة .

— ماذا تفعلين عندك ؟! تعالى هنا !

اخترق الصوت الكريه أذنيها مرة أخرى . تركت سريرها قائلة فى خوف وتردد :

— لا شىء ..

— اذهبى إلى أبيك فى الدكان . أريد اللحم الذى طلبته منه .. وأحضرى فى عودتك كيلو بطاطس وكيلو قلقاس واثنين طماطم ... وإياك والتأخير ... فأنت تعرفين نتيجته جيدا ..

سعدت نرجس بالأمر الذى صدر إليها وبمجرد اختفاء نعيمة خلعت نرجس الفستان الكستور وتأملت جسدها الجميل بانحناءاته الرشيقة فى المرآة القديمة المكسورة التى تشوه خطوط الجسم وملامح الوجه بتعرجاتها المضحكة ، ومع ذلك بدا الجسد جميلا مغريا بكدماته وخدوشه فى الصدر والجانب والفخذ . تخلصت نرجس من المرآة بصعوبة وارتدت فستانها الأحمر وحذاءها الأسود اللامع . وسرعان ما كانت فى الطريق تستنشق هواء الحرية .

تراب هذا الطريق شهد قدميه وهو يسير عليه فى ذهابه وعودته من الجامعة . هذا هو محل الجعبيرى للفول والطعمية . كثيرا ما تناول غداءه فيه أو حمله فى طبق إلى البدروم . وها هو الأسطى هريدى الحلاق الذى طالما قص له شعره الخشن الجميل . فى كل زوايا الطريق تخيلت صورته ، حتى منظره وهو يستلم منها البرقية فزعا كان عزيزا عليها .

ظلت فى تأملاتها وتمنياتها بمشاهدته فى الطريق صدفة ، لكنها بلغت اسطبل عنتر حيث دكان أبيها دون أن تتحقق أمنيتها . هناك أمام الدكان وجدت السيارة الفارهة التى يملكها المعلم المنجلاوى تاجر المخدرات وزبون المحل وزميل أبيها فى سهرات الأنس والفرفشة التى كثيرا ما التقطت بعض ملامحها من تلميحات أبيها لزوجته أو للمعلم المنجلاوى عندما تكون بالصدفة فى الدكان .

جلس المعلم المنجلاوى بجسده الضخم وخاتمه اللامع المتألق وعباءته السوداء يدخن النرجيلة فوق الرصيف ، فى حين انهمك صبيه سنارة الوسيم فى مساعدة أبيها وصبيه فى تقطيع الخروف الذى أمر به المنجلاوى الذى كثيرا ما عرض على أبيها الزواج منها ، لكنه كان يسوف ويؤجل الرد . ليس لأنه أكبر منها فى السن فهذا شيء ليس فى اعتباره ، ولكن لأن أمها هربت مع تاجر مخدرات وتركت عنده جرحا لا يزال ينزف ويدفعه إلى أن يقسو عليها من حين لآخر ، كأنها غلطتها .

أما سنارة صبى المنجلاوى فكان شابا وسيما له وجه ساحر وعينان جذابتان . وقد رأى نرجس قبل ذلك عدة مرات و لم يستطع أن يبعد عنها نظراته الساخنة الملتهبة التى قالت لها أشياء كثيرة فهمتها لكنها تجنبتها لأن

سيدا كان قد تربع على عرش قلبها . فلا مقارنة بين صبى تاجر مخدرات مهما كان وسيما جذابا وبين من سيصبح وكيلا للنيابة بعد عام ونصف .

— كان الساطور على وشك أن يقطع إصبعك !!

صرخ المعلم حنفى فى سنارة الذى سحب يده فى سرعة البرق من على « القرمة » . كان ممسكا بفخذ الخروف لكن عينيه كانتا على وجه نرجس وجسدها بمجرد دخولها فى حين صاح المنجلاوى مهللا :

— صباح الفل والجمال !

ابتسمت نرجس فى حياء وخجل دون أن ترد فى حين تضايق أبوها من حضورها فى أثناء وجود المنجلاوى وصبيه . سألها :

— خيرا .. ما الذى أتى بك الآن ؟!

— الجماعة أرسلتنى لطلب اللحم الذى طلبته منك ...

بدت على المعلم حنفى علامات التذكر وعيناه على كل من المنجلاوى وسنارة . مد يده وأخذ لفافة من على الرف الرخامى أمامه وأعطاها لابنته قائلا بصيغة الأمر :

— هيا إلى البيت ...

فتحت نرجس فمها فتضايق أبوها لكنها قالت :

— أريد نقودا لشراء بطاطس وقلقاس وطماطم ...

فتح المعلم حنفى الدرج أمامه وأخرج جنيها منحه لابنته بحركة توحى بضرورة مغادرتها المحل فورا . نفذت الأمر لكنها شعرت بنظرات المنجلاوى الشهوانية الثعبانية وعينى سنارة الساخنتين الساحرتين تخترق

ثوبها الأحمر دون أن تنظر خلفها . اختفت بسرعة كى يتنفس أبوها الصعداء ، وسارت حتى بلغت سوق الخضر الذى افترش جانبى الطريق الزراعى المترب ، واشترت البطاطس والقلقاس والطماطم واحتفظت لنفسها — كعادتها — بما تبقى من الجنيه ، بالإضافة إلى المصروف الشهرى الذى كان أبوها يمنحها إياه عن طيب خاطر ، كنوع من التكفير عن رضوخه لطلب زوجته عندما أصرت على عدم إكمالها دراستها برغم تفوقها حتى الشهادة الإعدادية .

مسحت نرجس الطريق بعينيها برغم التراب المتصاعد فى أعقاب الأتوبيسات واللوريات ، فلم تجد أثرا لسيد . عادت إلى المنزل . وجدت باب البدروم مغلقا فشعرت بوحشة كبيرة . فقد كانت عادة سيد أن يتركه مواربا طلبا للنور فى الظاهر ورغبة فى رؤيتها فى الباطن . وقعت عيناها على بئر السلم فكادت أن تصاب بالجنون ، وهاجمها خاطر مرعب أوحى إليها بأنه لن يعود . هربت منه بالقفز على درجات السلم . لبست فستانها الكستور مرة أخرى ووقفت فى المطبخ تقشر البطاطس . كانت نعيمة فى الحمام كعادتها اليومية حتى يأتى المعلم فيجدها نظيفة معطرة . أما طفلاها فكانا فى المدرسة : حسين فى الثانية الابتدائية ، وسعاد فى الحضانة .

كانت أجمل لحظات نرجس فى البيت هى التى تستحم فيها نعيمة أو التى تخرج فيها مع طفليها لزيارة الجيران . كانت تشعر بحرية ممتعة بحيث تتحرك من غرفة إلى أخرى كما تشاء ، والأهم من هذا كله أنها كانت تخطف لحظات المتعة مع سيد فى بئر السلم . صحيح أنها لحظات

مشحونة بالمخاوف والهواجس ، لكنها كانت تجترها فى خلوتها وتتخذ منها زادا يساعدها على الاستمرار فى الحياة .

خرجت نعيمة من الحمام وطلبت من نرجس كوب شاى صنعته لها بسرعة البرق اتقاء لشرها . ومع اقتراب الثانية ظهرا عاد المعلم حنفى من دكانه وتناول الجميع طعام الغداء مع انتقاد نعيمة لطريقة طهى القلقاس . ومع انتهاء الغداء ذهب المعلم وزوجته إلى غرفة النوم الذى اغلق بابها ، كما ذهب الطفلان إلى غرفتهما . طغى إحساس السعادة على نرجس ، وهو الإحساس الذى يراودها كلما خلت إلى نفسها فى غرفتها دون خوف من أن يقتحم أحد عليها خلوتها . لكن إحساسها هذه المرة كان مشوبا بالقلق الذى لا تدرى سببا حقيقيا له .

ظلت متشبثة بخصاص نافذتها . فقد جفا النوم عينيها فى فترة الظهيرة منذ سفره . كما أن نومها ليلا أصبح متقطعا على غير عادتها ، كان وجوده فى البدروم مصدر أمن وطمأنينة لها . كانت الساعة قد اقتربت من الرابعة عندما رأت شبحا يشبهه يقترب من المنزل .. شبت على أطراف أصابعها فإذا بها تتأكد منه . لقد عاد سيد بلحمه وشحمه ، لكن قلبها انقبض عندما رأته وهو يدخل وقد رفع رأسه تجاه نافذتها . كان وجهه داكنا حزينا مجهدا كأنه يحمل هموم الأرض كلها . كذلك فقدت مشيته حيويته المعتادة التى عشقتها . ماذا جرى ؟! أم هى واهمة ؟! لم تلبث فرحتها بطلعته أن انحسرت وتراجعت مع سماعها صوت إغلاقه للباب ! وتمنت من صميم قلبها أن تكون أحاسيسها مجرد أوهام لا أساس لها من

الصحة .

لم تجد فائدة من التشبث بنافذتها . استرخت على فراشها لكـن جسدها ظل مشدودا . إنها تريد أن تراه الآن حتى لو قامت قيامة البيت كله . لكن ما العمل لو رآهما أبوها ؟! يجب أن تتماسك انتظارا للحظة المناسبة حتى لا تفسد كل شيء . إن قدرتها على التحكم فى نفسها لم تخذلها فى لحظة من اللحظات ، حتى فى أعتى هجمات نعيمة عليها ، وفى الوقت نفسه ربما كان سيد منهكا من السفر ، وخاصة أنه جاء بعد أن ودع أباه إلى الأبد . فهل يعقل أن يعود سعيدا منطلقا مستبشرا ؟! إن الذى ينقاد لهواجسه ومخاوفه يمكـن أن يـذهب إلى الجحيم دون أن يدرى !!

سرت بعض الطمأنينة داخل نرجس وركزت همها فى كيفية اقتناص أسرع فرصة لمقابلته خلسة كعادتها . وحتى لو كانت كل مصائب العالم قد انهالت على رأسه فستقف إلى جواره بكل طاقتها . إن من يحتمل مصائب نعيمة يمكنه مواجهة مصائب الدهر . وقد اعتادت نرجس هذا الوضع حتى أصبحت السعادة هى الاستثناء .

مرت الدقائق بطيئة متثاقلة حتى دقت ساعة الحائط فى الصالـة السادسة مساء . شعرت بحركة فى غرفة نومهما فسرتها باستعداد أبيها لسهرته المعتادة . وبالفعل سمعت وقع قدميه خارجا من الغرفة وهو يقول لزوجته إنه سيتأخر . وبمجرد خروجه هرعت نعيمة لتوقظ طفـليها فسرت لأن هذه الحركة تعنى أنها ستأخذهما لزيارة الجيران . وكانت ظنون نرجس فى محلها . تظاهرت بالنوم حتى سمعت إغلاق باب الشقة

فنهضت ونظرت من خصاص نافذتها فوجدت نعيمة وطفليها فى طريقهم إلى منزل الجيران المقابل .

انتظرت نرجس حتى أخذت نعيمة جلستها فى غرفة ضيوف الجيران . كانت أشعة الغروب قد اختفت خلف البيوت وأطالت من ظلالها التى سرت بالبرودة فى عروق نرجس فهبطت كالفراشة على درجات السلم ثم وقفت تستمع إلى وجيب قلبها أمام الباب المغلق . دقت بخفة فلم يجب . دقت بصوت أعلى وهى تتلفت يمنة ويسرة فانفتح الباب وظهر سيد مرتديا نفس حلته المتهالكة التى وصل بها ، فى حين كان وجهه أكثر تهالكا . فى الحال أدركت نرجس أن كل ظنونها كانت فى محلها . قال لها بصوت كأنه صادر من القبر :

— أهلا ... نرجس ...

— قلقت عليك ... فلم أملك سوى السؤال عنك ...

— فيك الخير دائما ... أين زوجة أبيك ؟!

— عند الجيران ...

صمتت لحظة لكنه بدا ذاهلا فلم يفتح فمه . قالت :

— البقية فى حياتك ... يبدو أن المهمة كانت مجهدة للغاية ...

— لم تكن المهمة مجهدة بقدر ما كانت نهايتها مأساة لم تكن فى الحسبان !

سقط قلبها فى قدميها مؤكدا لها صدق قلقها وظنونها منذ الصباح .

— خيرا .. ماذا حدث ؟!

— ما حدث لم يكن خيرا على الإطلاق !

ـــ أرجوك .. أخبرنى بكل ما حدث !

ـــ ما حدث يطول شرحه !

نظرت حولها وقالت :

ـــ حتى لو قضيت الليل بطوله أستمع إلى شرحه .. أرجوك !

أجاب بسرعة كمن يريد الانتهاء من عبء يبهظ كاهله :

ـــ ركبت قطار الصباح بعد أن اتفقت مع أخى مصطفى على أن أبيع أرضى له حتى أغطى مصاريف الدراسة لحين التخرج . وأخذت منه مئة جنيه كقسط أول ... وركبت القطار وقد أحسست أننى ضمنت مستقبلى ... وكنت من حين لآخر أتحسس جيبى للاطمئنـان على مستقبلى .. ثم وصلت إلى القاهرة فى العاشرة والنصف . أردت أن أوفر مصاريف التاكسى التى دفعتها عند ذهابى ، فركبت أتوبيس حلوان من ميدان رمسيس عندما وجدت مقعدا شاغرا . جلست مبتهجا إذ لم يكن باقيا على رؤيتك سوى نصف ساعة ، فى حين كان المبلغ مستقرا فى جيبى الداخلى . وفى كل محطة وقف فيها الأتوبيس كان يكتظ بالركاب حتى تحول إلى علبة سردين . وعندما بلغ محطة مصر القديمة هبطت بصعوبة بالغة لدرجة أنه تحرك قبل أن أهبط . وكنت قد قررت الذهاب إلى مكتب بريد مصر القديمة كى أودع المبلغ فى دفتر توفير ... وبدلا من الذهاب إلى مكتب البريد ذهبت إلى قسم الشرطة ..

سكت سيد ليلتقط أنفاسه فى حين حبست نرجس أنفاسها متسائلة وقد خمنت الكارثة التى حلت به :

ـــ لماذا قسم الشرطة ؟! ماذا حدث ؟!

— اكتشفت بعد نزولى من الأتوبيس أن المبلغ طار من جيبى .. أعدت تفتيشه مئة مرة لكن لا جدوى ... أوشك قلبى على التوقف تماما وقد تجمع الناس حول صرخاتى عند محطة الأتوبيس ، وهم يضربون كفا بكف مندهشين من أولاد الحرام الذين لم يتركوا لأولاد الحلال شيئا . قادنى رجل عجوز طيب — ذكرنى بأبى — إلى قسم الشرطة لتحرير محضر بما وقع . لولاه لما استطعت السير إطلاقا . كانت ساقاى تحتى كعودى ثقاب حين اشتعلت الدنيا فى عينى بصفرة مرعبة .

توقف سيد برهة عن السرد ليجذب مقعدا جلس عليه قائلا :

— بلا مؤاخذة .. المهم جلست أمام أمين الشرطة أقص عليه مأساتى التى لم ينفعل بها على الإطلاق . كان بالغرفة خمسة متهمين مقبوض عليهم . وبين الحين والآخر كان أمين الشرطة ينهض ليصفع واحدا منهم ويكيل له السباب لجرائم كانت مسجلة فى أوراق أمامه . وعند انتهاء المحضر طلب منى بطاقتى الشخصية لكنها كانت قد ضاعت هى الأخرى مع الحافظة . فنظر إلى فى ريبة لكنه سرعان ما حرر محضرا آخر بضياع البطاقة التى لم أنس رقمها لحسن الحظ . ثم انهمك أمين الشرطة فى استجواب المتهمين فى حين نعيت نفسى فوق المقعد . كنت ذاهلا شبه عاجز عن الوقوف على قدمى ، لكننى تنبهت على صوت أمين الشرطة يقول لى ساخرا :

— إننا لن نأتى إليك بالمبلغ الآن !! ماذا تنتظر ؟!

شكرته ونهضت أجر قدمى نحو باب الخروج . رآنى شرطى عجوز فرق لحالى . ربت على ظهرى ونصحنى بالذهاب إلى نهاية خط الأتوبيس

فى حلوان لعل المبلغ قد وقع منى . أثناء نزولى ... فوق أرض الأتوبيس ، وأنهى كلامه بأن الدنيا لا تزال بخير وأن أولاد الحلال كثيرون ..

سألته نرجس محاولة إحياء ميت الآمال :

ـــ وهل ذهبت ؟!

ـــ لم يكن فى جيب بنطلونى سوى أربعة جنيهات وبضعة قروش ... هى كل ما تبقى لى فى هذه الدنيا ...

ـــ وماذا عن الأقساط التالية التى سيدفعها أخوك ؟!

ـــ ليس قبل عشرة أشهر ... المهم ذهبت إلى آخر خط حلوان وسألت ناظر المحطة فنصحنى مواسيا بأن ما يضيع فى هذه الأيام ... من الصعب أن يعود إلى صاحبه ...

ـــ ألم تشك فى أى راكب بجوارك ؟!

ـــ سألنى أمين الشرطة نفس السؤال ... لكن الوجوه كلها كانت بلا ملامح .

ـــ وما العمل الآن ؟!

ـــ قد لا تصدقينى إذا قلت لك إننى كنت أفكر فى الانتحار قبل أن أفتح لك الباب !!

أخذت نرجس يده وقبلتها فى حنان قائلة :

ـــ وأنا ؟! ألم تفكر فىّ ؟!

ـــ كنت أنوى أن أزيح نفسى من طريقك ... فلا أحب أن تربطى نفسك بإنسان فقد مستقبله ...

ربتت على كتفه مشجعة :

— لا أحب أن أسمع منك هذا الكلام ... فأنت شاب والشباب يصنع المعجزات !!

— نحن فى زمن انقطعت فيه المعجزات !!

— أنك يمكن أن تعمل وأن تواصل دراستك فى الوقت نفسه !!

— هل تعتقدين أن وقتى الذى كنت أشغله ليل نهار بالدراسة يمكن أن يتسع للعمل ؟!

— الإرادة الحديدية يمكن أن تفعل أى شىء !!

— وأين هو هذا العمل ؟! تتكلمين كما لو كانت الوظيفة فى انتظارى ؟! إننى لا أملك مجرد المال الذى يمكننى من البحث عن عمل !!

— لا تحمل هما طالما أن نرجس معك !! لحظة واحدة !! عن إذنك ... سأعود حالا ! لا تغلق الباب !!

أسرعت صاعدة وسيد يتعجب من أمرها . لكنه شعر بأن هما ثقيلا قد انزاح عن كاهله بمجرد الحديث معها . هذه المخلوقة الساحرة فى مقدورها أن تفعل فى نفسه الأعاجيب برغم كل جدران اليأس المطبقة عليه . تحسس يده بحنان مكان شفتيها الدافئتين ، فسرت داخلة قشعريرة كهربية جعلته يشعر بدقات قلبه الميت مرة أخرى . سمع وقع أقدامها الحبيبة على الدرجات الحجرية وإذا بها أمامه تمد يدها إليه بمظروف سميك . سألها :

— ما هذا ؟!

— أمسك أولا .

أطاع فقالت فى حسم :

ــ بداخله سبعة وثلاثون جنيها كنت قد ادخرتها من مصروفى ..
استعن بها على قضاء حاجتك .. وسأستردها منك فيما بعد ..
وبالفوائد أيضا !!

طفحت عيناها الرماديتان ببريق الحنان والحب والابتسامة الرقيقة .
لكنه مد يده بالمظروف :

ــ لا أستطيع أن أعيش عالة عليك .. من المفروض أن تعتمدى علىّ
لا أن أعتمد أنا عليك ..

دفعت يده بالمظروف بحسم واضح :

ــ ما قيمتى فى حياتك .. إن كنت لا تعتمد علىّ فى وقت
الشدة .. إننى لا أمن عليك .. كما أننى لا أفعل شيئا بهذه النقود .. على
الأقل فى الوقت الحالى .. فكيف تسول لك نفسك أن تردنى هكذا ؟!

هبط بشفتيه على يدها التى أصرت على دفع المظروف حتى صدره .
تركت يدها تستمتع بأنفاسه اللاهثة الساخنة وشفتيه المرتعشتين اللتين
مسحتا ظاهر الكف وباطنه فيما يشبه العبادة . جرت الدماء ساخنة فى
عروقه فنهض واحتضنها وأخفى وجهها بالقبلات . لكنها تخلصت منه
برقة وهى تنظر حولها فى حذر قائلة :

ــ ابتداء من غد ستبحث عن عمل .. وسأساعدك فى تبيض
محاضراتك وتلخيصها ..

ــ سأكون عند حسن ظنك .. حتى يرضى أبوك « بالأفندى »
الذى سيتقدم لطلب يدك ..

ابتسمت نرجس قائلة :

ــ سأصعد الآن حتى تستريح .. وكفانا من هذا اليوم الطويل هذا اللقاء القصير ..

لم يشأ أن يترك يدها :

ــ إن راحتى حيثما تكونين !!

ــ يجب أن نتسلح بالحرص .. فكفى ما جرى لنا !!

ابتسم لأول مرة منذ عودته :

ــ سمعا وطاعة ..

قبل يدها فسحبتها منه برقة وصعدت السلم فى خفة فى حين أضاء سيد البدروم تاركا بابه مواربا . استرخى على فراشه وهو يحاول تبين معالم المستقبل وسط أبخرة متصاعدة وأدخنة متكاثفة امتزج فيها الأبيض بالأسود فتحول الكون إلى سديم رمادى .

٤

مر شهر لم يترك فيه سيد مكانا يحتمل أن تكون فيه وظيفة تعينه على تكاليف الحياة وعلى استمراره فى دراسته ، لكنه فى نهاية كل يوم كان يعود بالحسرة . فقد انقطع معظم الأيام عن الدراسة التى لم يتبق فيها سوى شهر مارس وأبريل . كما أن المبلغ الذى أخذه من نرجس ، انكمش واقترب من نصفه برغم التقتير الذى بلغ فيه سيد حد الإعجاز .

وكان يحكى لنرجس خطوات فشله أولا بأول كلما أمكنه ذلك من خلال لقاءات السلم العابرة ، وهى صابرة صامدة ، بحيث استمد من

صبرها وصمودها قوة يتحدى بها كل موجات اليأس والإحباط التى أوشكت على إغراقه .

لكن الحقيقة البشعة التى اكتشفها من خلال تجربة هذا الشهر المرير ، كانت أكثر مرارة بحيث قضت على حماسه لدراسته تماما . كان فى سنوات الدراسة الخضر يؤمن بأن التفوق يمكن أن يحقق له كل أمانيه ، لكن السنوات العجاف — التى بدأها من شهر واحد فقط — أوضحت له أن البشر يتعاملون بمعايير مختلفة تماما . فقد تقدم لوظيفة كتابية حقيرة فى إحدى المؤسسات التى أعلنت عنها فى الصحف . وقبل امتحان المقابلة الشخصية وجد أن معظم المتقدمين يحملون توصيات من ذوى الحيثيات . كان سيد يعلم هذا من قبل ، لكنه لم يكن يعلم أن حاملا لليسانس الحقوق بتفوق يمكن أن يتقدم لهذه الوظيفة الكتابية ويُرفض بعد أن رفضت الكلية تعيينه ، لأنه من أسرة كادحة فقيرة ووساطته الله وتفوقه . فقد توطدت الصداقة بين سيد وبين هذا الشاب المكافح بحكم اشتراكهما فى الدراسة ، والذى اضطر إلى التقدم لهذه الوظيفة التى لا تناسب مؤهله حتى لا يظل عالة على أسرته . ولكنه كان بمثابة الذى رضى بالغلب والغلب لم يرض به . فقد فاز بالوظيفة شاب يحمل دبلوم التجارة المتوسطة لقرابته للساعى الخاص لرئيس مجلس الإدارة .

رأى سيد مستقبله وقد تجسد فى هذا الشاب . حتى الليسانس الذى ظنه شاطئ الأمان أصبح سرابا . وأخذ يستعرض أفراد عائلته الكبيرة فلم يجد فيها — لسوء حظه — ساعيا لرئيس مجلس إدارة . عائلة كلها من الفلاحين الذين لم ير معظمهم القاهرة لا بد أن تعيش على هامش الحياة .

أما قلب القاهرة فلا يدخل إليه إلا من عرف خباياها ودهاليزها السرية . فإذا كانت قريته هى « دار الرماد » فإن القاهرة هى « دار النار » وعليه أن يقاومها حتى لا يحترق . لكن ما ذنب نرجس حتى تنتقل من جهنم زوجة أبيها إلى جحيمه ؟! إنها جميلة ومرغوبة والمستقبل أمامها عريض ، فلينسحب من حياتها بهدوء وشرف ، ويكفيه اللحظات الحلوة التى قضاها معها والتى سيعيش عليها العمر كله ، إذا امتد به .

ذات مساء بعد يوم طويل من البحث الفاشل هبطت نرجس بعد ذهاب زوجة أبيها لزيارة الجيران مع طفليها . فقرر سيد أن يحسم الأمر كله معها حتى لا يجنى على مستقبلها أكثر من ذلك وخاصة أنها كانت قد رفضت شابين تقدما لخطبتها من قبل ، معتمدة على حماس أبيها لتزويجها من « أفندى » . فقد كان الشابان من العاملين فى السلخانة وأحدهما ابن جزار كبير ميسور الحال . وكان « الأفندى » عند المعلم حنفى يعنى خريج الجامعة ، وطالما أن الليسانس أصبح سرابا لأن أحدا من « دار الرماد » لن يصدقه إذا قال إنه وقع ضحية لنشال ، فلا بد من مواجهة الواقع مهما كان مريرا . هكذا علمته نرجس ، وستكون هى أول من يطبق عليها درسها المفضل .

وقفت نرجس كعادتها مبتسمة بجلبابها الأبيض النظيف :

ـــ مساء الخير يا سيد ..

أجاب وكان مرتديا جلبابه الذى لم يغسله منذ شهر :

ـــ الخير كلمة نذكرها فقط فى الصباح والمساء .. أما طوال اليوم فليست له علاقة بحالنا على الإطلاق .

ــ لا تكن متشائما هكذا .. فات الكثير ولم يبق سوى القليل .

ــ مجرد كلمات طيبة .. لكن ما العمل وكل الطرق مسدودة فى وجهى ؟! وبالتالى مسدودة فى وجهك دون ذنب لك سوى أنك ارتبطت بى فى يوم منحوس جاء بى إلى هذا البدروم ..

ــ ألا يكفى الحب الذى ينير قلوبنا ؟!

ــ الحب ليس لأمثالنا !!

ــ ألا تحبنى ؟!

ــ تعرفين جيدا أننى أعبدك .. ولهذا قررت أن أبتعد عنك ؟!

ومضت عيناها الرماديتان ببوادر دموع فى ضوء مصباح البدروم الهزيل لكنها وضعت يدها على فمه :

ــ لا تقل هذا أبدا .. إننى معك أشعر أننى أستطيع دك الجبال .. أما بمفردى فأنا ريشة فى مهب الرياح ..

ــ لا أريد منك تضحية أكثر من هذا .. يكفى أننى لا أعرف إذا كنت سأسدد دينى لك أم لا ؟!

ألقت بيدها إلى جانبها ولا تزال على نفس إصرارها :

ــ مالى مالك .. والأيام التى جمعت بيننا لن تستطيع أن تفرق بيننا .. والدنيا التى أغلقت أبوابها فى وجهك سنعرف معا كيف نفتحها .. وسنعامل الناس بنفس أسلحتهم .. كفانا خنوعا وهوانا ومذلة .. فالغابة التى نعيش فيها لا تنحنى إلا للأسود .. أما الخراف والبقر فمصيرها السلخانة ثم عرضها للبيع فى دكان أبى ..

لمح سيد فى عينى نرجس وميضا جميلا ومخيفا فى الوقت نفسه . كما

جسد فكها ضغطا متزايدا بين ضروسها . لكنه لم يرضخ :

— إننا لا نملك أية أسلحة حتى نتعامل بها مع الآخرين . فنحن ولدنا عزلا من السلاح .. ولا داعى لخداع أنفسنا !!

— هل أفهم من كلامك .. أنك لا تزال مصرا على هجرى ؟!

— من أجل مستقبلك .. أما أنا فلا مستقبل لى !!

ارتعشت شفتاها لكنها أمسكت نفسها عن البكاء وصعدت درجات السلم كالسهم وعلى فراشها استلقت مجهشة فى البكاء وجسمها يهتز بكل منحنياته ونتوءاته . ثم تنبهت إلى نفسها وصمتت ماسحة وجنتيها بكم ردائها . جلست فى فراشها . قفزت منه وظلت تسير فى غرفتها جيئة وذهابا كالأسد فى القفص .. كفاها تنازلات . لن تتنازل عن سيد . إنه كل ما تملك فى هذه الدنيا . وتنازلها عنه لا يعنى سوى تنازلها عن الحياة نفسها . إن من تقدموا لطلب يدها ، جاءوا لامتلاكها ، ولا يمكن أن تقضى حياتها متنقلة من حوزة مالك إلى ملكية آخر .

إن استسلامها لصفعات نعيمة وركلاتها ليس ضعفا ولكنه حكمة . فتلك ليست قضيتها بل مجرد مرحلة عابرة فى حياتها لا بد أن تمر بطريقة أو بأخرى . أما سيد فقضية عمرها . وإذا كان على استعداد ليضحى بنفسه من أجل مستقبلها فهى ليست على استعداد لتضحى به حتى لا تضحى بنفسها . وإذا كان الناس لا يملكون سوى الرثاء للضحية ، فليذهب رثاؤهم إلى الجحيم .

عاد الوميض المخيف إلى عينيها . كانت صفعات نعيمة وركلاتها بلا هدف قبل ذلك سوى استمتاعها بإذلالها . أما الآن فستجعل لها هدفا

تحدده بنفسها . فإذا كانت نعيمة تغار من جمالها وجاذبيتها ، فهى لا تعلم أن الله قد منحها أيضا رجاحة العقل فى التفكير والتدبير . هذا هو السلاح الثانى الذى ولدت به . أما سيد فمخطئ عندما يظن أن بعض الناس يولدون عزلا من السلاح . وستثبت له هذا الدرس عمليا .

تشبثت نرجس بخصاص نافذتها دون أن تضىء النور . ظلت ترقب زوجة أبيها فى غرفة ضيوف الجيران حتى رأتها تقف مع طفليها إيذانا بالعودة . هبطت مسرعة فوجدت باب سيد لا يزال مواربا . كان يطالع أحد كتبه فى الضوء الخافت بنظرات شاردة . باغتته عندما أمسكته وسحبته خارجا حتى كاد أن يتعثر فى ذيل جلبابه . دفعت به إلى بئر السلم واحتوته بذراعيها فشعر بطراوة صدرها وسخونته عندما انهالت على وجهه بالقبلات وهو فى ذهول من أمره أو من أمرها ، لم يعرف على وجه التحديد . وإنما وجد نفسه فجأة بعد أكثر من شهر طويل من الحرمان ، يعتصرها ويكاد يبتلعها بشفتيه اللتين قتلهما الظمأ . فى سكون بئر السلم وظلامه تصاعدت الآهات والتنهدات التى سمعتها نعيمة فى صعودها إلى شقتها وأمامها نظر الطفلان بعضهما إلى بعض نظرات متسائلة لم ترها الأم فى ظلام السلم . لكنها بمجرد أن تأكدت من الآهات والتنهدات أضاءت البطارية الصغيرة التى تحملها معها عادة وركزتها على بئر السلم . أمرت طفليها بالصعود فورا إلى الشقة فأطاعا فى خوف . ثم تراجعت وانقضت كالحدأة على نرجس لتجذبها من شعرها وتجرها فوق درجات السلم فى حين قفز سيد إلى غرفته وأغلق الباب دون أن يستوعب ما جرى .

وصلت نعيمة بنرجس إلى داخل الشقة وأغلقت الباب ثم أضاءت النور وانهالت عليها بكل قوتها صفعا وضربا وتنكيلا . لكن نرجس صمدت كالجبل دون أن تفتح فمها بكلمة فى حين انطلق لسان نعيمة بالحمم : يا فاجرة . يا ضائعة . يا عاهرة .. سأعرفك كيف أمنعك من تلطيخ شرف العائلة .. هكذا فى بئر السلم وتحت سمعى وبصرى .. لماذا لم يأت معك إلى فراشك هنا ؟! لم يتبق إلا ذلك يا رخيصة !! إنك تستحقين الشنق وليس مجرد الضرب والإهانة !! منذ متى وأنت تمارسين هذا الرجس معه ؟! سنعرف كيف نطرد هذا الكلب من البيت الذى آواه !! وإذا أردت أن تلحقى به فإلى الشارع معه وبئس المصير !!

لكن نرجس ظلت صامدة كالجبل ، شامخة كالهرم ، صامتة كأبى الهول دون أن تذرف دمعةً واحدة مما ضاعف من هياج نعيمة ، لكن قوتها كانت قد تخاذلت.وعندما توقفت عن الصفع والركل لالتقاط أنفاسها ، كانت نرجس قد ذهبت صامتة إلى غرفتها حيث جلست على فراشها فى الظلام استعدادا للمعركة القادمة فى منتصف الليل عند عودة أبيها ، فى حين لزم الطفلان غرفتهما وهما يرتعشان خوفا وهلعا ، ولا يدريان ماذا يجرى . أما الأم فجلست فى الصالة لاهثة وإن لم تتوقف عن تهديدها بالويل والثبور وعظائم الأمور .

إنها ليلتك يا نرجس . ليلة الصمود حتى الموت .. لن تلقى السلاح إلا إذا أصبحت جثة هامدة . لكن إذا مر الإعصار دون أن يقضى عليك ، فستجعلين من نفسك إعصارا ضد كل الذين أهانوك وعذبوك ووقفوا فى طريق حياتك . أراد سيد أن يدرس القانون حتى يصبح من

رجال العدالة ، لكنه اكتشف أن قانون الغابة هو القانون الوحيد المعترف به والمطبق فعلا بخسة ونذالة ، فى حين أنه مطبق فى الغابة بنبل وفروسية .

مرت الثوانى والدقائق بطيئة ، وعلت دقات ساعة الحائط فى الصالة . ظلت نعيمة قابعة فى مكانها ، ونرجس فى فراشها كجيشين خاضا معركة شرسة ، ثم فض اشتباكهما لفترة وجيزة التقاطا للأنفاس واستعدادا للمعركة الفاصلة . ساد الصمت المطبق بعد أن تلاشت حركة العربات فى الطريق الزراعى . دقت الساعة منتصف الليل ، فاستعدت نرجس لمعركة قد تمتد حتى مطلع الفجر . ارتسمت أمام عينيها فى ظلام الغرفة علامات استفهام : ماذا يفعل سيد الآن ؟ هل ترك جحره وخرج هائما على وجهه خوفا من الفضيحة أو الانتقام ؟ ماذا سيظن بها ؟! هل سيعتقد أنها خططت عامدة لوقوع هذه الكارثة ؟! لكنها أقنعت نفسها أخيرا بأن استسلامهما للمصائب لم يمنعها من أن تنهال عليهما ، فلماذا لا يبادران بالهجوم والاقتحام ولو لمرة واحدة فى حياتهما ؟!

سمع صوت أقدام ثقيلة على درجات السلم الحجرية ، ثم حشرجة سعال المعلم حنفى . وقبل أن يضع المفتاح فى ثقب الباب هرعت نعيمة وفتحته له . قال لها متسائلا وهو يغلقه خلفه :

ـــ خيرا .. ما الذى جعلك مستيقظة حتى هذه الساعة من الليل ؟ ليست عادتك ؟!

ألقت نعيمة بالقنبلة التى لم يسمع المعلم حنفى دويها لشدته :

— ابنتك الفاجرة !!

لم يستوعب فتساءل :

— من تقولين ؟!

أكدت نعيمة قولها بالضغط على مخارج الألفاظ :

— ابنتك الفاجرة !!

تساءل فى ذهول :

— ابنتى أنا ؟!

— طبعا .. ابنتك .. من يكون غيرها ؟! صحيح اكف القدرة على فمها .. تطلع البنت لأمها !!

قال بصوت من أعماقه كالهدير :

— أفصحى يا نعيمة .. ماذا تريدين أن تقولى بالضبط ؟!

انطلق بركانها بكل حممه المشتعلة والمنصهرة :

— ضبطت الست نرجس الليلة فى أحضان عشيقها !!

تطاير الشرر من عينيه ولوح بعصاه فى الهواء :

— متى حدث هذا ؟! وكيف ؟! ومع من ؟!

— كنت فى زيارة الست كريمة مع حسين وسعاد .. وفى طريق عودتى سمعت فى بئر السلم أصواتا مريبة .. أضأت البطارية فوجدت نرجس فى أحضان سى السيد ..

— سى السيد من ؟!

— الولد الذى آويته فى بيتك ليصبح أبوكاتو !!

ـــ سيد الكلب ؟!

ـــ هو بعينه !

سار المعلم حنفى خطوتين تجاه غرفة نرجس ثم توقف متسائلا :

ـــ وأين هى الكلبة ؟! هل هربت معه كأمها ؟!

ـــ لا .. إنها فى غرفتها !

دخل الغرفة وأضاء المصباح . وجدها جالسة على فراشها وقد وضعت رأسها بين ذراعيها . علا الهدير من أعماقه :

ـــ هل صحيح ما سمعته ؟!

لم ترد . تلاشى المزاج العالى الذى بلغ قمته مع نهاية السهرة . رفع عصاه وهوى بها على كتفها . أحست بدوار شديد سقطت على أثره على أرض الغرفة . أوشكت على أن تفقد الوعى لكنها شحنت كل إرادتها ، ومضت داخلها فكرة جاءت إليها مثل طوق النجاة لها ولسيد . صرخت صرخة قفزت على أثرها نعيمة داخل الغرفة فوجدتها ملقاة بلا حراك وحنفى ممسكا بعصاه ينظر بذهول إلى لا شيء . سألته :

ـــ ماذا حدث ؟!

قال وقد بدأ يثوب إلى رشده :

ـــ أبدا .. ضربتها بالعصا فسقطت هكذا !!

ـــ أتريد أن تدخل السجن من أجل كلبة مثلها ؟!

جلست نعيمة القرفصاء وهزتها بعنف لكنها لم تستجب . رأت نرجس من بين رموش عينيها الرعب على وجه نعيمة فشعرت بسطوة سعيدة لا مثيل لها . ظلت تهزها بعنف متزايد صارخ :

ـــ فوق . تنبهى . لماذا كل هذا ولم يعتد عليك أحد ؟! هل من نهاية للمصائب التى تأتينا من تحت رأسك ؟!

عاد الذهول إلى المعلم حنفى . صرخ صرخة مدوية :

ـــ ابنتى بريئة طاهرة .. لا بد أنه غرر بها .. سأذبحه مثل الشاة !!

ألقى بالعصا أرضا . جرى إلى المطبخ وعاد بسكين طويلة . كانت نرجس على وشك أن تنهض إنقاذا لسيد لكنها وجدت نعيمة تلقى بها أرضا وتقفز وراء زوجها صارخة :

ـــ أجننت يا معلم ؟! أتريد أن تشنق وتيتم أطفالك من أجل كلب مثله ؟! اهدأ بالله ؟! اطرد الشيطان ولنر ماذا جرى للبنت أولا !!

استرخت نرجس تماما على الأرض عندما رأت نعيمة تدخل وخلفها أبوها . كان ألم العصا يشتد على كتفها لكن إحساسها بالسيطرة على الموقف فى رقدتها أنساها كل آلام الليلة النفسية والجسدية . أغمضت عينيها تماما . تربعت نعيمة بجوارها واضعة رأسها فى حجرها . ظلت تربت على وجنتيها وتدلك جبهتها حتى أوشكت نرجس على الابتسام الذى غطته بآهات خافتة صادرة من الأعماق . سعدت نعيمة بالآهات ومعها أبوها الذى تأكد من أنه لم يقتلها فى سورة غضبه . لكن الآهات خفتت مرة أخرى واستغرقتها الغيبوبة .

جلس المعلم حنفى القرفصاء بجوار ابنته . شعر بالنقمة على نعيمة تجتاحه لإشعالها كل هذا الحريق ، لكن نقمته سرعان ما تلاشت عندما تذكر أن نعيمة هى التى منعته من أن ينهال بالضربة الثانية على ابنته ، وهى التى منعته أيضا من ذبح سيد . شعر حنفى برغبة جارفة تدفعه إلى

احتضان ابنته . لماذا لم تصارحه برغبتها فى الزواج منه ؟! لو فعلت ما جرى الذى جرى !! لكن أن تتبادل معه الأحضان والقبلات فى بئر السلم وفى بيته ، فهذا ما لا يمكن أن يحتمله على الإطلاق . إنه ما كان يمكن أن يفعل سوى ما فعله !! لكن هل يمكن أن يكون قد قتلها ؟! هزها فى عنف فلم تستجب . صرخ صرخة مدوية واحتضنها باكيا :

— نرجس .. حبيبتى .. لقد قتلتك بيدى .. أنا مجرم .. أنا قاتل !!

استأنفت نرجس الآهات ومعها التنهدات هذه المرة . فلم تحتمل بكاء أبيها . ردت إليه الروح وظل يربت وجنتيها ويحتضنها فى جنون . شعرت نعيمة بغيرة قاتلة فنهضت جالسة على الفراش تراقب الموقف من علّ . تنهدت نرجس بصوت أعلى ثم فتحت عينيها نصف فتحة قائلة بوهن الغيبوبة :

— أين أنا ؟!

احتضنها أبوها بذراعين كالحديد قائلا :

— أنت هنا يا حبيبتى فى حضن أبيك !!

استمرت بنفس النغمة الواهنة الذاهلة :

— ماذا جرى ؟! لماذا أنا هكذا ؟!

تطاير الشرر من عينى نعيمة التى بدأت تشك فى مدى إصابة نرجس ، لكنها كظمت غيظها . سأل حنفى ابنته :

— هل نحضر لك الطبيب ؟!

تساءلت فى منتهى البراءة :

— لماذا ؟!

ـــ لقد أغمى عليك !!

ـــ أنا ؟!

ـــ ولهذا أنت ملقاة على الأرض كما ترين !!

نظرت نرجس إلى جسمها الملقى على الأرض وكأنها تستكشفه لأول مرة . شاهدت وجه أبيها عن قرب لأول مرة ، كانت عيناه زاخرتين بالحنان واللهفة ، وهو الجزار الجبار الذى لم تلق منه سوى الغضب والسباب واللعنات والضربات فى بعض الأحيان .

أجلسها بجواره فوق السجادة محاولا تذكيرها بالموضوع الذى لا تحتاج إلى من يذكرها به على الإطلاق . قال بصوت خافت عريض :

ـــ أحيانا أثور عليك يا نرجس لأننى أخاف على مستقبلك من أن يمسه أى شاب يحاول التلاعب به !!

شعرت به يجذبها إلى الموضوع المتفجر جذبا ، ففكرت بسرعة خارقة كى تصحح مسار الحوار لصالحها . قالت :

ـــ كانت رغبتك دائما يابا أن أتزوج من « أفندى » .. وسأكون دائما عند حسن ظنك ..

ـــ هل فى ذهنك « أفندى » معين ؟!

لم تحتمل نعيمة هذا الحد من التدليل فهبطت من الفراش صوب الصالة . فى حين انتهزت نرجس فرصة غيابها وقالت لأبيها فى صوت هامس :

ـــ ما قالته لك كان كلاما مبالغا أرادت به نقمتك علىّ !!

ـــ إذا .. ماذا حدث بالضبط ؟!

ــ كان سيد فى طريق عودته من الكلية فطلب منى تحديد ميعاد لمقابلتك .

ــ أهذا كل ما فى الأمر ؟!

ــ لا بد أن تعرف يابا أننى نرجس الشريفة الطاهرة مثل أبيها المعلم حنفى تماما !

ــ ولماذا لم يقابلنى سيد فى الدكان ؟!

ــ خشى أن تصده وتحرجه فآثر أن يجس النبض أولا !

ــ معنى هذا الكلام أنك تقابلت معه عدة مرات ؟!

ــ لم أره إلا عندما سلمته تلغراف وفاة أبيه .. وفى المرة الثانية والأخيرة اليوم قال لى إنه يريد مقابلتك .. فقلت له : اذهب وقابله . فهذا ليس شيئا جديدا عليه .. لكنه قال إنه يخشى أن تصده لأن الموضوع هذه المرة حساس وحرج .. ففهمت قصده فى الحال وقلت له إن الأمر أمر أبى والشورى شورته ..وليس لى يد فى هذا الموضوع .. عندئذ فاجأتنى الست نعيمة وجرى ما جرى ..

تنفس المعلم حنفى الصعداء وربت على شعر نرجس قائلا :

ــ سامحينى يا بنتى .. لقد أخطأت فى حقك ! وأسأت الظن بك !

قبلت نرجس يده فجأة فسحبها مستغفرا الله ، فقالت :

ــ لو ذبحتنى يابا .. فأنا فداك !!

قبلها فى رأسها :

ــ أنا الذى فداك .. بحياتى وروحى وكل ما أملك !!

فى أوج أول انتصار كبير لها قالت :

— وإذا كنت غير راض عنه .. فليذهب إلى الجحيم هو والليسانس الذى سيحصل عليه بعد عام .. فأنا لا يهمنى سوى رضاك ..

— سيد شاب لا بأس به .. فكثيرا ما أشاهده منكبا على دروسه .. لكن كيف سيصرف عليك وهو لا يزال تلميذا ؟!

قالت فى تحفظ :

— إذا حاز قبولك يابا ومباركتك .. فيمكننى أن أنتظر حتى التخرج الذى لم يبق عليه سوى عام واحد ..

— على بركة الله ..

وذاقت نرجس حلاوة النصر لأول مرة فى حياتها ، ونامت ليلة من أسعد لياليها ، لم يُنقِص من سعادتها آلامها المبرحة وكتفها شبه المخلوع وخوفها على سيد من الرعب الذى مر به .

٥

نجحت خطة نرجس نجاحا لم تتوقعه حتى فى أحلامها . حتى الدور الذى رسمته لزوجة أبيها فى الخطة — دون أن تدرى — تم على أكمل وجه . فقد أيدت نعيمة زواجها من سيد بكل قوتها على أساس التخلص منها نهائيا بعد أن شعرت فى تلك الليلة الرهيبة بخطورتها التى كان من الممكن أن تؤدى بزوجها إلى حبل المشنقة أو إلى السجن على أحسن الفروض . أما سيد فكان مذهولا للإمكانات والقدرات العجيبة التى اكتشفها فيها ، والتى جعلته يشعر أن فى إمكانه الانطلاق إلى القدر معها .

أقسمت نعيمة لحنفى بكل المقدسات أنها لم تكذب فى كلمة واحدة عندما أخبرته بما رأته بين نرجس وسيد . واحتار المعلم حنفى بين زوجته وابنته . أيهما يصدق ؟! لكن إلحاح نعيمة على تبرئة نفسها من تهمة الكذب جاء فى صالح نرجس . فبعد أن كان حنفى قد اقتنع بفكرة انتظار ابنته لسيد حتى يتخرج ، خاف من أن يجرى فى فترة الانتظار ما لا تحمد عقباه ، فقرر أن يتزوجا على الفور . ووقفت نعيمة بكل قوتها وراء هذا القرار ظنا منها أنها بهذا ستنتقم من نرجس . لأن الزواج سيشغل سيدا عن متابعة دراسته ، وبالتالى يضيع مستقبله وتصبح نرجس عبرة لمن يعتبر . كما كان فى اعتبار نعيمة بطبيعة الحال التخلص من وجود نرجس وهبوطها إلى بدروم الفقر والبؤس .

كان سيد صادقا فى كل كلمة قالها للمعلم حنفى ، لدرجة أنه صارحه بعجزه عن شراء حلة جديدة للزفاف . لكنه أخفى عنه أنه أصبح بلا مورد يواصل به العيش . فقد كانت الظروف أقسى وأكبر من أن يواجهها ويقول رأيه بصراحة ، ولذلك ترك نفسه مع التيار لا يعرف أين يرسو ؟! ولعل العامل الوحيد الذى بث فيه الطمأنينة أنه سيصبح زوج ابنة المعلم حنفى الميسور الحال الذى لا بد أن يرأف بحاله عندما يعلم موقف أسرته منه بعد وفاة أبيه التى حاول استغلالها فى تأجيل الزفاف بعض الوقت لالتقاط الأنفاس ، لكن المعلم حنفى أوضح له الفرق بين عقد الزواج وبين إقامة الأفراح والليالى الملاح .

وبالفعل عقد الزواج الذى لم يحضره من خارج البيت سوى الأخ الأكبر والأخت الصغرى للمعلم حنفى . وكان سيد قد ارتدى بذلة

رصاصية اللون اشتراها له المعلم حنفى . أما نرجس فقد بدت فى ردائها الأبيض الطويل مثل باقة من النرجس يتوسطها وجهها الخمرى ذو الجمال الغجرى ، وعيناها الرماديتان ببريقهما الوحشى . وكانت الغيرة قد بلغت بنعيمة حدا جعلها تتأسف لأنها منعت المعلم حنفى من قتلها فى ثلك الليلة الرهيبة . أما نرجس فكانت تنظر لنعيمة نظرات باسمة ظاهرها العسل وباطنها السم .

هبطت نرجس مع سيد إلى البدروم . وكان التيار لا يزال يحمل سيد ، لا يعرف أين يرسو به ؟! لكنه بمجرد أن اختلى بنرجس شعر بأن التيار قد ألقى به على شاطئ صحراء شاسعة لا نهاية لها . ولولا الجنيهات المئة التى منحها المعلم لابنته لما عرف كيف يأكل .. أهكذا تتحقق اللحظة التى ظل يحلم بها منذ أن عرف نرجس ؟! كانت فى خياله لحظة السعادة والنشوة والغرق فى بحار الحب والاكتواء بلسعة الرغبة ، فرآها لحظة الخوف من المستقبل ، والغوص فى مستنقعات اليأس ، والاختناق بدخان الآمال المحترقة . أين القاهرة الساحرة التى كانت دنياه الرحبة المنطلقة ؟! لماذا ضاقت حتى كادت أن تطبق عليه ؟! قرأ فى كتب التاريخ فى صباه أنها سميت القاهرة لقدرتها على قهر كل غزاتها ، لكنها فى دنيا الواقع تبدو كأنها قادرة على قهر عشاقها وأبنائها فقط !!

جلست نرجس على حافة الفراش وقد نظرت إلى الأرض خجلا .

خلع سيد حلته الجديدة وعلقها على الحائط بعد أن غطاها بكيس من النايلون . كان خوفه عليها صادرا عن إحساسه بأنه لا يمتلكها لأنها ليست من عرق جبينه . أما هذه الأنوثة المتفجرة الجالسة على الفراش

بجواره فلا تحمل هم المستقبل . إنها تعيش لحظتها بكل أبعادها ، وعندما تحين اللحظة التالية فإنها تشحذ فكرها وغريزتها لاحتوائها . لكنه لا يستطيع أن يفعل مثلها وهو يرى دفة مستقبله كلها تتجه إلى جهة غير معلومة .

خجل من نفسه عندما ترك عروسه هكذا . أخرج نفسه من قاع آماله المحترقة واحتضنها ثم قبلها فى عينيها وشفتيها . وهى مستسلمة له تماما . تذكر استسلامها لصفعات نعيمة وركلاتها ، لكنه أدرك أن هذا الاستسلام ليس سوى واجهة شفافة تغطى إرادة صلبة وعزم من حديد . فقد قررت الزواج منه برغم كل المعوقات ، وتزوجته بالفعل . كان يخاف من مستقبله اليائس ، لكنها كانت واثقة تماما مما تفعله ، ولم يعرف حتى الآن من أين أتت بهذه الثقة ؟!

فك طرحتها فبدا شعرها الأسود الفاحم اللامع مسترسلا كشعور الحوريات اللاتى قرأ عنهن فى طفولته المغرمة بالأساطير التى أشعلت طموحه . لكن الرغبة التى تصورها جارفة كالطوفان ، اعترضتها سدود البطالة والإفلاس . فهو لا يستطيع أن يعيش عالة على زوجته التى كانت قد عقدت عليه آمالا كبارا . فكثيرا ما كانت تشتط بهما الأحلام إلى كرسى الوزارة ، ولا تقتصر على مقاعد القضاء . كانت ثقتها فيه غير محدودة . لكن الأمر الآن أصبح فى حاجة إلى معجزة حقيقية . لكن المعجزات الآن تحدث حيث توجد الأموال الطائلة والعلاقات الراسخة والقطط السمان . أما الفئران العجاف فمكانها الجحور ، مثل ذلك الجحر الذى زفت نرجس فيه إليه . وكل المعجزة التى يمكن أن تتوقعها

مثل هذه الفئران أن تهرب من مطاردة الناس لها ، ومن السموم المتربصة بها فى كل مكان . والويل كل الويل لها إذا قابلت قطا سمينا متخما . فى الحال سينسى تخمته وإذا بلعابه يسيل استعدادا لصيدها والتهامها .

ـــ فيم تفكر ؟!

داهمه سؤال نرجس كأتوبيس الطريق الزراعى ، لكنه سرعان ما تدارك الأمر قائلا :

ـــ أبدا !!

احتضنها بحنان بالغ ثم قبلها فى شفتيها وشرع فى فك سوستة فستانها فقالت له دون أن ترفع عينيها :

ـــ أطفئ النور .. إنه يضايقنى ؟!

قام وأطفأ النور قائلا بمرح :

ـــ يبدو أنك تعودت على ظلام بئر السلم ؟!

ابتسمت ابتسامة لم يرها فى الظلام وقالت :

ـــ كانت أياما لا تنسى ..

استمع إلى كلماتها بآذان صاغية . استجمع قواه وطرد أفكاره السوداء . أضاء الظلام بوجه نرجس وجسدها فقرر أن يتحدى القدر والمجتمع والكون وأن يجعل منها ليلة العمر .

شقت بهما سفينة النشوة عبابا صاخبا وريحا عاتية . ارتفعت بها الأمواج إلى قممها الفائرة بالزبد ثم هوت بها إلى سفوحها الغائرة بالهدير مداعبة جسد نرجس الخمرى بملوحتها الطازجة ، فى حين أمسك سيد بالدفة يطارده شبح الأعماق السحيقة المظلمة . لكنه ظل ممسكا بها إلى

أن هدأت العواصف وسكنت الأمواج وزقزقت طيور النورس واسترخت نرجس وقد أطبقت عينيها فى نعاس من جاءه النوم بعد سفر طويل .

شعر سيد بنومها العميق وأنفاسها المطمئنة المنتظمة ، فأراد أن يستمد من طمأنينتها ما يساعده على النوم ، لكنه وجد أن بر الأمان الذى بلغته السفينة بهما لم يكن سوى صحراء لا نهاية لها . وسفينة لا تستطيع أن تمخر عباب الصحراء .

إنه الآن فى شهر إبريل . لم يتبق على امتحانه سوى شهر واحد . ولم يعرف كيف يستعد له منذ أن أتته تلك البرقية المشئومة . وحتى فى اللحظات التى اقتطعها من همومه ، لم يستطع أن يخلو لمحاضراته ، وخاصة تلك التى يحضرها وقام بنقلها من كراسات زملائه . وقد اعتادت همومه أن تقتحم عليه خلوته التى لم تدم سوى لحظات معدودات . إذا من الخير له أن يعتذر عن دخول الامتحان حتى لا يرسب بعد تفوق مستمر ، ذلك أن أمله فى نجاح هزيل أصبح ضعيفا هو الآخر .

أما عن إفلاسه فهو الطامة الكبرى . فهو لم يكذب على المعلم حنفى لكنه أخفى عنه ضياع القسط الأول من نصيبه ، وأنه أصبح عاجزا عن الإنفاق ، ليس على زوجته فحسب بل على نفسه أيضا . ولولا المئة جنيه التى منحها المعلم لابنته لما وجدا ما يأكلانه . حتى البيض والجبن والمربى التى سيتناولها معها فى الإفطار من هذا المبلغ الذى لم تقدمه نرجس هذه المرة له حتى ينفق منه . وهذا أمر له دلالة واضحة . إنها لا تريد أن يضيع المبلغ فى مساعى البحث عن وظيفة مستحيلة كما حدث للمبلغ السابق الذى ادخرته من مصروفها . لكنه فى الوقت نفسه لا يريد ولا يستطيع

أن يعيش عالة عليها وهو الذى جاء من بيئة قروية تحتم على الرجل أن يكون سيد موقفه وأسرته وزوجته بأى ثمن .

لم ير سيد بصيصا من الأمل فى ظلام الغرفة . إنه لا يستطيع أن يطالب أسرته بأى مبلغ قبل تسعة أشهر ! كما أنه لا يستطيع أن يعيش على نفقة زوجته ! وحتى إذا استمر على هذا الوضع ، فهل تستمر الجنيهات المئة إلى الأبد ؟! لم يتبق عنده سوى أمل وحيد لكنه ضعيف : هو العثور على وظيفة ولو مؤقتة تساعده على اجتياز عنق الزجاجة الذى يكاد يقتله خنقا !

شعر بأنفاسه تضيق بهَ . غرق فى دوامات الحيرة والقلق ، وتخبط فى لجحها إلى أن تسللت بشائر الفجر من خصاص النافذة مع حفيف عجلات بعض السيارات المبكرة على الطريق الزراعى . وجد لوحا صغيرا من الخشب فتعلق به وقرر أن يواجه الواقع مهما كان مرا . قرر أن يصارح المعلم بكل أبعاد مأساته ، ولكن بعد مرور فترة معقولة من زواجه كى يؤكد أن انقطاع دخله الشهرى تم بعد الزواج وليس قبله ، حتى لا يشم رائحة أى خداع قد يثير الجانب العدوانى داخله .

استراح سيد لهذا الخاطر أو القرار . تسلل النوم إلى جفونه . لكنه كان نوما خفيفا شعر خلاله بحركة نرجس بين الغرفة والمطبخ ، ثم بجلوسها إلى جواره على الفراش وتقبيلها إياه فى جبينه وجفنيه ووجنتيه وشفتيه . فتح عينيه على عينيها الرماديتين ببريقهما الآخاذ . أخذها فى أحضانه وأمطر وجهها بالقبلات . سألته :

ــ هل نمت نوما عميقا ؟!

ابتسم وقال :

ــ للغاية !!

ــ لكن عينيك لا تدلان على ذلك ؟!

ــ هل يعقل أن يكون كل هذا الجمال بجوارى وأنام نوما عميقا ؟! هل أنا فاقد للإحساس إلى هذا الحد ؟!

ضحكت وهى تداعب شعره الخشن بأناملها الدقيقة :

ــ لكنك نمت حتى العاشرة والنصف ..

نهض فرأى المائدة الخشبية العارية الصغيرة وقد تلفحت بغلاف من ورق أصفر على هيئة مفرش ، وضعت عليه أطباق البيض المسلوق والجبن الأبيض والمربى الحمراء والخبز الفينو . أما الفول فقد غاب لأول مرة عن المائدة . تركت الفراش قائلة :

ــ الإفطار جاهز يا سعادة البك ..

تبعها حيث جلس فى مواجهتها . قال وهو يحتسى رشفة شاى :

ــ وصلت إلى قرار يا نرجس فى الليلة الماضية .. ولا بد أن تعرفيه !

قالت وهى تقضم قطعة من الجبن ضاحكة :

ــ كنت أظن أن وقتك لم يكن يتسع للقرارات فى الليلة الماضية !

ظهر شبح ابتسامة على شفتيه لكنه سرعان ما تسلح بالجدية :

ــ إننى جاد يا حبيبتى .. فأنا لا أستطيع أن أقيم حياتى معك على خداع .. منذ البداية !!

تلاشت بقايا الابتسامة على وجهها :

ــ لكن الخداع لم يعرف طريقه إلينا ؟!

ــ لقد خدعت أباك عندما أخفيت عنه الحقيقة !!
ــ إنك لم تكذب عليه .. بل أنا التى خططت لإقناعه بزواجنا !!
ــ وماذا سيقول عندما يكتشف أن زوج ابنته مفلس عاطل ؟!. كما أنه عاجز عن إكمال دراسته الجامعية ؟!
ــ إننا نستطيع تدبير أمورنا بالمبلغ المتبقى لدينا .. حتى تحصل على القسط الثانى من ثمن أرضك .. وربما تكون فى هذه المدة قد حصلت على وظيفة دائمة أو حتى مؤقتة !!
ــ إننى أقدر لك هذه الشهامة النادرة يا حبيبتى .. لكنك تدركين جيدا أننى لا أحتمل العيش عالة عليك !!
ــ إن كلمة « عالة » ليس لها وجود بيننا !!
ــ إذا .. هل لى أن أسأل كم تبقى من الجنيهات المئة ؟!
تشاغلت نرجس بتقشير بيضة وتقديمها له . لكنه أصر على سؤاله فقالت دون أن تنظر إليه :
ــ ما يقرب من أربعين جنيها !!
ــ أى بمعدل عشرين لكل منا .. وهذا يعنى أن الأمور لا يمكن أن تسير على هذا المنوال .. لا بد من مواجهة الواقع بكل مرارته ..
توقفت عن تناول ملعقة مربى وهزت رأسها قائلة :
ــ أنا متفقة معك تماما .. لكن كيف ؟!
ــ سأصارح أباك بكل شىء !
ــ وهل تعتقد أنه سيتسامح معنا عندما يشعر أننا خدعناه ؟!
ــ أفضل من أن يكتشف الحقيقة بنفسه ! عندئذ يمكن أن يطردنا من

البدروم أو المكان الوحيد فى الدنيا الذى احتمل وجودنا ..

ــ إذا كنت مصرا على هذا الموقف فلا بد من استخدام الحكمة والحذر والتخطيط الدقيق حتى نكسبه إلى صفنا بقدر الإمكان .. وربما رق لحالنا وساعدنا فى اجتياز أزمتنا !!

بدت معالم الارتياح على وجه سيد وقضم نصف البيضة التى فى يده قائلا :

ــ هذا هو ما أريده منك بالضبط يا حبيبتى !

تحولت فى مقعدها إلى كتلة من الحماس :

ــ لا بد أن تنتظر فترة من الوقت ثم سأقص عليه قصة مؤثرة للغاية !

لملم سيد أطراف جلبابه عندما بلغ به حب الاستطلاع قمته :

ــ كيف ؟!

ــ سأحكى له أن أهلك قرروا قطع المعونة عنك عندما علموا بزواجك منى .. لأنهم كانوا قرروا من زمن بعيد تزويجك من ابنة عمك !!

ــ وماذا عن نصيبى من الأرض ؟!

ــ لن أحكى له شيئا من هذا القبيل .. حتى لا يعتمد أبى على هذا .. فالمشكلة فى نظره تتمثل فى تسببى فى ضياع مستقبلك حتى أكسب عطفه عليك .. وبالتالى أوحى إليه من طرف خفى بمساعدته لك ..

نظر إليها مذهولا .. ففى كل يوم كان يكتشف فيها شيئا جديدا . ماذا لو كانت نرجس قد أكملت تعليمها ؟! كان من السهل لها أن تدخل التاريخ من أوسع أبوابه . إن عبقريتها فطرية عفوية مثل قوى الطبيعة التى لا تعبأ بأية موانع فى طريقها . سألته :

— فيم تفكر ؟!

أخرجه سؤالها من تأملاته . نهض دون تفكير واحتواها بين ذراعيه بقميصها الكستور الأبيض الناصع . قبلها فى وجنتها ببقايا البيضة فى فمه وهو يقول :

— كنت أفكر فى أغلى جوهرة منّ الله بها علىّ !

ضحكت وأشارت إلى بقايا البيضة على وجنتها فمسحها بشفتيه .

٦

تأثر المعلم حنفى كثيرا عندما قصت عليه نرجس مأساة سيد . ذات صباح طلبت من سيد الذهاب إلى الكلية كى يقدم اعتذاره عن دخول الامتحان . ثم فتحت باب البدروم مترقبه هبوط أبيها وذهابه إلى محل جزارته ، وبمجرد أن سمعت وقع أقدامه على السلم وقفت بالباب فألقى عليها تحية الصباح فطلبت منه خمس دقائق فقط من وقته بعد أن تظاهرت بالحيرة الشديدة .

دخل المعلم سائلا بقلق عن أحوالها . فلم تجبه بل أجلسته على مقعد أمام المائدة الخشبية العارية واستأذنت لصنع الشاى لكنه أمسك بها وأجلسها إلى جواره بعد أن لاحظها وكأن هموم الدنيا قد جثمت على كتفيها . كرر سؤاله فقصت عليه المأساة بتأثر بالغ ، ثم بكت لأنها تسببت فى ضياع مستقبله . ولم تكف عن النحيب لأن إحساسها بالذنب يطاردها ليل نهار ويكاد يقضى عليها .

تأثر المعلم حنفى وسب أعمام سيد ووصفهم « بالأنذال » ، ثم قال لابنته :

ــ إن مالى هو مالك يا نرجس .. وأى مبلغ يطلبه سيد أنا تحت أمره حتى يفك الله ضيقه ..

قالت نرجس بكبرياء :

ــ المشكلة أن سيد لا يحتمل حسنة من أحد .. إن اعتزازه بكبريائه يمكن أن يدفعه إلى الانتحار بدلا من أن يمد يده لأحد ..

قال المعلم حنفى وقد تحول إلى كتلة ضخمة من التعاطف :

ــ لم أقصد حسنة لا سمح الله !! فما عاش رجل عاش على الحسنات .. لكننى أقصد أية مساعدة لخروجه من أزمته .. وإذا كان مصرا على رفض المساعدة المالية .. فأنا أرحب به مساعدا لى فى الدكان ..

ومض البريق الأخاذ فى عينى نرجس وجذبت يد أبيها لتقبيلها لكنه سرعان ما سحبها بشدة مستغفرا الله وقائلا :

ــ إنه سيحصل على مرتب لقاء مساعدته لى .. ولن أثقل عليه حتى يتفرغ لدروسه .. وعندما يتخرج ويصبح أبوكاتو يستطيع أن يدافع عنا فى قضايا التموين التى تهبط علينا من حيث لا ندرى ..

ــ لن ينسى سيد لك هذا الجميل يابا .. حفظك الله لنا ..

نهض المعلم حنفى مربتا على ظهر ابنته وهو يقول :

ــ لا تحملى هما طالما أن أباك يدب على وجه الأرض ..

حاولت جذب يده مرة أخرى لتقبيلها لكنه سحبها بسرعة مستغفرا

الله وخرج قائلا :

ـــ عندما يأتى سيد .. قولى له إننى فى انتظاره ..

خرج المعلم حنفى بقامته الضخمة وعباءته السوداء وعصاه الغليظة فى حين سمعت نرجس صوت أقدام مسرعة ، وارتطام باب الشقة العليا فعرفت أن نعيمة كانت تتلصص على زيارة المعلم لها . لكنها لم تعبأ ودخلت مغلقة الباب خلفها وهى تكاد ترقص منتشية فى انتظار وصول سيد من الكلية .

عاد سيد والقلق ينهشه فى انتظار نتيجة اللقاء بين نرجس وأبيها ، وإذا به يفاجأ بالأنباء السارة التى لم تكن تخطر على باله ، ويتأكد من عبقرية زوجته التى يمكنها معالجة أى موقف بمهارة قد تتعذر على أكبر رجال السلك الدبلوماسى أو السلك القضائى . لكنه لم يتوقع أن يعمل صبيا لجزار ، وصارح زوجته بذلك ، لكنها قالت :

ـــ لقد علمتك الحياة أن تقبل ما تأتى به إليك .. فأمثالنا ليس لهم حق الاختيار .. كما أن الجزارة من المهن المربحة .. فدخل أبى لا يقل عن دخل أى وزير إن لم يزد عليه ..

ـــ لقد أصبحت واقعية جدا ؟!

ـــ عندما تستيقظ من أحلامك الوردية على كابوس .. فلا بد أن تكره هذه الأحلام كى تتعامل فورا مع الكابوس .. ومع ذلك فعملك مع أبى ليس كابوسا على الإطلاق . فلو أنك شربت الصنعة منه فإنك يمكن أن تصبح جزارا مثقفا ..

ـــ لم يخطر هذا على بالى إطلاقا !

ــ يمكنك مواصلة دراستك مع عملك الذى أعتقد أنه لن يكون سهلا ..

ــ طبعا .. فأنا لم أعتد مثله من قبل !

ــ لا أقصد هذا ... وإنما قصدت إلى الدور الذى يمكن أن تلعبه نعيمة فى إشعال غضب أبى عليك حتى يطردك .. وفى اعتقادى أنها قادرة على ذلك تماما . يكفى أن تسوق عليه الدلال والتمنع حتى يخر ساجدا .. إنه أبى وأنا أدرى به .

ــ سأعمل بكل جد واجتهاد .. فقد اعتذرت عن الامتحان .. وسأثبت للمعلم أننى خير ابن مخلص ووفى له ..

قبل سيد زوجته وخرج . فى حين سمعت نرجس صوت أقدام صاعدة وارتطام باب الشقة العليا فأدركت هذه المرة أن نعيمة لها بالمرصاد ، وإن كانت الحرب بينهما قد اتخذت شكلا آخر ، على الأقل فيه الكثير من الندية .

فى الدكان رحب المعلم حنفى بسيد ، ونصحه ضاحكا بأكل اللحوم الدسمة و« العكاوى » حتى لا يتهافت تحت ضغط العجول والخراف عند حملها من السلخانة وإحضارها على الموتوسيكل ذى العجلات الثلاث إلى الدكان . فمهنة الجزارة لا تعرف النحافة . كذلك فإن العمل فى الدكان نفسه يحتاج إلى حمل العجول والخراف من الثلاجة لتعلق فى الخطاطيف ، ويحتاج أيضا إلى القوة والمهارة فى تقطيع اللحم وتكسير العظم ، وتخليص هذا من ذاك .

كان سيد على استعداد لعمل المستحيل لإرضاء المعلم حتى يجتاز

محنته . لقد شعر بتكسير العظام الذى تكلم عنه المعلم ولكن فى جسمه هو . كان يذهب إلى نرجس فى آخر النهار كى يرقد بلا حراك حتى صباح اليوم التالى . ومع ذلك اعتبرها تحديا لا بد أن يواجهه . وساندته نرجس بكل قوتها حتى اعتاد هذا العمل الشاق الذى ضاعف من فحولته ورجولته . فلم يكن المعلم يبخل عليهما بأى صنف من أصناف اللحوم الممتازة بعد أن لمس بنفسه مدى إخلاص سيد وتفانيه فى خدمته ، لدرجة أنه كان يقص عليه كل شىء يقع فى غيبته عن الدكان . فمثلا قص عليه حكاية الصداقة التى أنشأها معه المعلم المنجلاوى لدرجة أنه طلب منه ذات مرة فى غيابه أن يعمل معه بعد أن يترك عمل الجزارة الشاق ، لكنه رفض خيانة العيش والملح مما زاد من إكبار المعلم حنفى له وضاعف من مرتبه . بعد أن حذره طبعا من العمل مع المعلم المنجلاوى الذى يمكن أن يضيع مستقبله تماما هذه المرة .

لكن نرجس أدهشت سيدا عندما طلبت منه الحفاظ على حبال المودة مع المنجلاوى ومساعده سنارة لأن أحدا لا يعرف الظروف فى المستقبل . وكانت نرجس على حق لأن الغيرة فاضت أخيرا بنعيمة وشعرت أن «الحية» — وكان هذا هو اللقب الذى أطلقته على نرجس — تخطط للاستيلاء على دكان المعلم ، كما خططت تماما للزواج من سيد . ووجهت نعيمة مدافعها الثقيلة هذه المرة صوب المعلم نفسه عندما لاحظت عدم قدرته على إخفاء إعجابه بسيد ، أو الاستغناء عنه .

ذات مساء انتظرته حين عاد متأخرا من سهرته كعادته . كان مزاجه معتدلا للغاية نظرا لجودة أصناف الكيف التى أحضرها المنجلاوى فى

تلك الليلة الحارة من ليالى يوليو . دخل المعلم فوجد نعيمة جالسة فى الصالة مرتدية قميص نوم من النايلون الأحمر الشفاف . ضغطت وطأة الكيف على خلايا مخه فاشتهى حتى عضلاتها . إذ يبدو أن تعامله مع عضلات العجول قد جعله لا يميل إلى الأنوثة الرقيقة الطرية . وها هى الآن نعيمة — أو نعنع كما يدللها — تغريه بعضلاتها التى تعرف جيدا أنه يعشقها .

ألقى بعصاه الغليظة بعيدا وهجم عليها لكنها أفلتت منه إلى غرفة النوم . كان يعرف أن مناوراتها فى الدلال والتمنع سرعان ما تنتهى إلى استسلام كامل . فانطلق إلى غرفة النوم حيث وجدها مسترخية على الفراش ، ألقى بنفسه عليها لكنه وجد جسده على الفراش . وهى واقفة عند الجانب الآخر . نهض ودار حول الفراش لكنها دارت قبله وسبقته إلى حيث لم يستطع الإمساك بها . تعجب لطول نفسها هذه الليلة فى مناورات التمنع والدلال ، وأدرك أنها لا بد وراء مطلب معين . وأقسم لنفسه على تلبيته طالما أنه سينالها . لكن نفسها كان طويلا هذه المرة . فقرر أن يقتنصها بأسرع ما يمكن قبل أن يضيع المزاج الذى ينفق عليه كل ليلة أكثر من نصف دخله ، وخاصة تلك الليلة الحارة الساخنة ، ليلة الجمعة .

هجم عليها فى ركن الغرفة كالصقر مقتنصا فريسته ، فأوشكت على الصياح لكنه وضع يده على فمها محذرا :

— لا داعى لهذا الدلال حتى لا يستيقظ الأولاد !!

حملها إلى الفراش كما يحمل البتلو . حاولت التملص منه لكنه أحكم

قبضته عليها فى حين كانت شفتاه تعبثان برقبتها ووجهها وهو يقول بنهم لاهث :

ـــ تحت أمرك .. اطلبى ما تريدين !!

قالت دون أن تفتح عينيها :

ـــ إنك لم تطرد الولد سيد حتى الآن .. لو كنت تحبنى حقا لكنت قد أجبت طلبى منذ أول مرة !!

أجاب وهو يدفن وجهه بين ثدييها :

ـــ لا أفهم السر فى سيطرة هذا الموضوع التافه على تفكيرك ؟! إنه يساعدنى مقابل أجر تافه .. ثم لا تنسى أنه زوج ابنتى !!

ركزت عينيها على وجهه قائلة :

ـــ لهذا السبب بالذات لا أستطيع طرد الموضوع من تفكيرى !!

احتضنها بشدة لعلها تصمت وقال :

ـــ فلنؤجل الحديث فى هذا الموضوع حتى الصباح .

لم تصمت :

ـــ سنظل نؤجل فيه حتى يأتى اليوم الذى يستولى فيه هذا السيد وزوجته على مصدر رزقنا !

بدأ الكيف فى التبخر من تلافيف مخه :

ـــ كلها أوهام يا نعنع !!

ـــ أنا أدرى بنرجس منك .. تقتل القتيل وتسير فى جنازتـه .. ضحكت عليك فى أول الأمر واستماتت حتى تزوجت من سيد .. وبعد الزواج وضعتك أمام الأمر الواقع وعرفنا أن زوجها عاطل ومفلس ..

وطالب فاشل أيضا لديه من الجرأة والوقاحة ليصارحك بأنه لن يدخل امتحان هذه السنة بحجة انشغاله فى مشاكل أسرته وفى عمله معك بالدكان .. كل هذا التخطيط للاستيلاء على الدكان ولا زلت تدافع عنهما ..

تلاشى المزاج تماما ، ونضح مع حبات العرق على جبينه :

ـــ تتكلمين كما لو كنت مت .. وآن الأوان لتقسيم الميراث ؟!

ـــ بعد عمر طويل يا معلم .. والأعمار بيد الله .. وأنا لا حياة لى بدونك .. لكننى أفكر فى مستقبل الأولاد ..

تأثر المعلم بكلامها المعسول وتساءل :

ـــ وماذا سيكون مصير سيد إذا طردته من الدكان ؟!

ـــ تحمل همه كما لو كنت أنجبته ونسيته !! وأين الأرض التى ورثها !؟ الأمر كله كذب فى كذب وخداع فى خداع !! إن الذى يحب ويتزوج يجب أن يفعل هذا على حسابه لا على حساب الآخرين .. وطالما أن نرجس كانت تعرف كل شىء عنه فعليها أن تتحمل مسئولية حياتها معه . أما نحن فمسئوليتنا ضخمة والمستقبل أمامنا طويل لتربية أطفالنا .

قال فى استسلام نهائى :

ـــ كما تشائين !!

ـــ لا تؤاخذنى يا معلم .. لم يكن مقصدى أن أعكر مزاجك .. فأنا لم أقل لك هذا الكلام إلا عندما تأكدت من أن طفلنا الثالث فى الطريق وربما منّ الله علينا بتوأم .. ولذلك أرجوك .. لا تضغط على بطنى أكثر من هذا ..

أزاحت يده برفق فامتثل وومضت عيناه ببريق متسائل :

— منذ متى ؟!!

— منذ حوالى شهر ..

قبلها فى وجهها برقة :

— لك كل ما تطلبين .. فأنا أريد ذرية تملأ عين الشمس !!

تجسد العزم فى مخارج ألفاظها :

— إذا .. اطرده غدا !!

— لك علىّ أن أنفذ طلبك .. لكن بالطريقة التى أجدها مناسبة !!

— أخاف أن يستثير عطفك وقلبك الكبير ؟!

— لقد وعدتك .. وأنت تعرفين جيدا أن كلمتى برقبتى ..

— عارفة يا معلم !!

ثم احتضنته وتركت أناملها تلعب بشاربه الكث الغليظ ، فنسى نرجس وزوجها ، ولم ير سوى جسد نعيمة المسترخى إلى جواره . هم بأن يعصره لكنه تذكر القادم الجديد فى بطنها ، فى حين كان وجهها ينطق بالنداء المستسلم المغرى الذى يعشقه .

٧

سرعان ما شعر سيد بالتغير الذى طرأ على معاملة المعلم حنفى له دون سبب واضح أو مبرر مقنع . فقد كان تفانيه فى العمل يتضاعف يوما بعد يوم ، لكن النتيجة كانت عكسية تماما . وعندما صارح نرجس بهذا

التحول تأكدت كل ظنونها التى دارت حول نعيمة . وظهر من جديد شبح البطالة والجوع . صحيح أن المعلم حنفى لم يصرح لسيد برغبته فى الاستغناء عنه ، لكن كل تصرفاته كانت تؤكد هذه الرغبة عمليا . وهذا هو الأخطر . أنقص أجره بحجة أن الحكومة حددت أسعار اللحوم فى حين أنه كان يرسلها إلى المنازل بالأسعار التى يحددها وكل الزبائن سعداء . أما الدكان فيبيع العروق والجلود والدهون مع اللحم بالتسعيرة . لم يشأ سيد أن يجعل من إنقاص أجره قضية وهو الغريق المتعلق بقشة . لكن الأمور كانت تسير من سيئ إلى أسوأ :

أصبح كلام المعلم حنفى معه زاخرا بالسخرية التى تجلت فى تسميته بسيادة الأبوكاتو : احمل العجل يا حضرة الأبوكاتو !! اذهب إلى السلخانة يا سيادة الأبوكاتو !! امسح الدكان يا أبوكاتو !! ثم توالت التساؤلات عن الأرض فى البلد وميعاد استحقاق القسط الثانى ! وهى أسئلة لم تكن تثار من قبل ثم أصبحت الموضوع المفضل المتكرر عند المعلم !! وكان المعلم المنجلاوى فى تردده على الدكان يلاحظ هذا ، فضاعف من ضغطه ثم طلب من المعلم حنفى أن يقوم سيد بتوصيل اللحم إلى بيته لأنه سيسافر لمدة شهر لشراء بضائع لتجارته . ورحب المعلم حنفى بتلبية كل طلباته .

أدرك سيد السر فى حماس نرجس المبكر لتوطيد علاقته بالمعلم المنجلاوى . وسعدت بطلبه من سيد توصيل اللحم إلى بيته حتى تتاح الفرصة للحديث والتفاوض بعيدا عن أبيها . لكن سيد لم يكن مرتاحا على الإطلاق للفخ الذى ظل المنجلاوى يصنعه له منذ عمله بالدكان ،

والذى أثار قلقه بصورة أشد من قلقه من شبح البطالة والجوع . فهو شبح أرحم بكثير من شبح السجن والأشغال الشاقة عندما تقع الفأس فى الرأس . ولذلك كان يهاجم نرجس كلما رحبت بمحاولات المنجلاوى لأنه لم يستطع أن يتخيل مستقبله وهو يتحول من رجل قضاء إلى صبى لتاجر مخدرات ، إذ أن الأمور لا يمكن أن تصل به إلى هذا الحد . لكن ما العمل إذا طرده المعلم حنفى ؟ هذا هو السؤال الذى ألح على عقله بعد أن أصبحت معاملة المعلم حنفى لا تطاق ، وانتقلت من التلميح إلى التصريح لدرجة أنه توقف عن هبات اللحم التى كان يمنحها له مازحا بقوله : جحا أولى بلحم توره !

فكر سيد فى السفر إلى قريته فى محاولة للحصول على القسط الثانى لكنه شعر أن الذهاب إلى المنجلاوى أرحم بكثير من زيـارة « دار الرماد » . كان لا يزال فى شهر أغسطس وقد أخبره أخوه مصطفى أنه لن ينال مليما واحدا قبل أكتوبر . وحتى إذا حصل على هذا القسط ، فهل يستطيع أن يعيش سنة كاملة على مئة جنيه ؟! وخاصة أن أمامه الآن عامين — على أقل تقدير — حتى يتخرج فى كلية الحقوق ، بعد أن كان قد شارف التخرج بعام واحد فقط !!

أصبحت الظروف تدفعه إلى مفترق طرق تلاشت معه كل الصور الوردية للمستقبل . لكن سرعان ما تجسدت هذه الصور أمام عينيه عندما وصل على دراجته البخارية إلى مفترق الطرق الذى يربط مداخل المعادى بميدان أخضر تظلله الأشجار الباسقة . كانت أول مرة له يذهب فيها إلى المعادى التى سمع عنها كثيرا دون أن يراها برغم قربها من مصر

القديمة . فكثيرا ما تكلم المنجلاوى عن جمال الحى الذى يقطنه ، والذى قضى المعلم حنفى فيه بعض سهراته .

احتار سيد أى طريق يشق ؟ كل الطرق جميلة ومتشابهة . بعضها يحمل أرقاما والبعض الآخر يحمل أسماء . دار بدراجته البخارية المحملة باللحوم الطازجة الممتازة مع الميدان وبحث عن الشارع رقم ١٣ الذى وصفه له المنجلاوى فوجده بعد سؤال أصحاب المحلات القريبة من الميدان . عبر القنطرة الصغيرة وانحرف يسارا مع بدايات غروب الشمس . كان الجو لطيفا برغم قيظ أغسطس خارج حدود المعادى وفى مصر القديمة بالذات .

عرف فيلا المنجلاوى الأنيقة — دون البحث عن رقمها — من سيارته السوداء الفارهة القابعة أمامها . أوقف دراجته بالقرب منها . وحمل الأكياس الضخمة على كتفه ودق الجرس . فتح الباب ووجد خلفه وجه سنارة باسما جذابا مرحبا . ترك الأكياس أمامه واستأذن راجعا لكن سنارة أمسك بذراعه طالبا منه الصعود معه حسب طلب المعلم المنجلاوى . حاول سيد التملص لكن سنارة كان حازما بشكل مثير لم يملك معه سوى أن يمتثل ويصعد معه السلم الفاخر المغطى بالسجاد فى حين تسلل الهواء المكيف خلف قميص سيد وبنطلونه مرطبا جسده المتصبب عرقا . فارتاحت نفسه لهذا الهدوء الممتع . تركه سنارة فى غرفة صالون فاخرة لم ير مثلها سوى فى أحد الأفلام القليلة التى شاهدها فى سينما الفيوم . تذكر نرجس وبدأ يدرك بعض الحكمة الكامنة خلف إصرارها على توطيد علاقته بالمنجلاوى .

جلس سيد فغطس فى أحد المقاعد الوثيرة فوق سجادة غاص فيها حذاؤه الممزق المترب فخجل من منظره . أما ملابسه الملطخة بدماء العجول والخراف والتى فقدت كل لون مميز لها ، فقد فاحت منها رائحة السلخانة والدماء المتجمدة . تجاهل منظره المقزز بمشاهدة التلفزيون الملون أمامه ، والذى كان يعرض فيلما أجنبيا بلا ترجمة عربية . ذهل سيد لمناظر العرى والإثارة وأدرك أن هذا هو الفيديو الكاسيت الذى يتكلمون عنه ويعرض كل شيء ممكن وغير ممكن بعيدا عن أية رقابة .

سمع صوت أقدام . التفت فشاهد المعلم المنجلاوى قادما فى جلباب حريرى أبيض ، عارى الرأس لأول مرة ، فى حين سطع الخاتم الماسى فى ضوء الشاشة الملونة . انتفض سيد واقفا فرحب به المنجلاوى قائلا :

ـــ خطوة عزيزة يا معلم ..

تعجب سيد للقب الجديد الذى أسبغه عليه المنجلاوى فقال :

ـــ أعز الله مقدارك يا معلم !

جلس المنجلاوى وسرعان ما أتى سنارة بالنرجيلة له واختفى فى لمح البصر . أطلق المنجلاوى الدخان من فمه وأنفه نقيا صافيا وهو يتساءل متتبعا التلفزيون بمتعة فائقة :

ـــ هل شاهدت أفلاما مثل هذه من قبل ؟!

أجاب سيد دون أن يرفع عينيه .

ـــ لا .. لم يحدث !

ـــ ماذا قررت بخصوص كلامى معك أكثر من مرة ؟!

ـــ أنا تحت أمرك يا معلم .. لكن أرجو أن تمنحنى فرصة لأفكر !!

ـــ الفرصة طالت يا سيد .. وأنت لا تدرى أن المعلم حنفى يريد الاستغناء عنك !!

ـــ لم يفاتحنى بصراحة فى هذا الموضوع .

ـــ اللبيب بالإشارة يفهم !

قال مترددا خجلا :

ـــ لو حدث يا معلم .. فأنا رهن إشارتك !.

دخل سنارة بالمشروبات المثلجة . ووضع كوبا أمام المعلم وآخر أمام سيد واختفى فى لمح البصر . خجل سيد من أن يمد يده لكن المنجلاوى قال ضاحكا :

ـــ مد يدك .. بل ريقك .. الدنيا حر ..

ارتشف سيد رشفة قصيرة ثم تبعها بأخرى فاستأنف المنجلاوى :

ـــ اقطع العرق وسيح الدم قبل أن يقطع عرقك !

تلعثم سيد متسائلا :

ـــ لا أفهم يا معلم ؟!

ـــ أقصد .. اتركه بكرامتك قبل أن يطردك !

ـــ إن فضله علىّ .. ولا يمكننى أن أتركه بهذه البساطة !

ـــ أصيل فعلا .. لكن عليك أن تحسم الموضوع معه .. لا أخفى عليك .. فقد صارحنى أنك لا تصلح لهذه الوظيفة التى تحتاج إلى عضلات بلا مخ .. أما العمل معى فيحتاج إلى مخ بلا عضلات .. وأعتقد أن هذا يناسبك أكثر .

لم يرد سيد وظل مركزا بصره على الكوب المثلج أمامه فقال

المنجلاوى معلقا :

— لا زلت مترددا؟! سأمنحك فرصة أخرى للتفكير .. لـكنها ستكون الفرصة الأخيرة هذه المرة ..

شعر سيد أن الزيارة انتهت فنهض مستأذنا .. نهض المنجلاوى محاولا إجلاسه لكنه أصر شاكرا كرم ضيافته ، فمد يده فى جيب جلبابه وأخرج ظرفا أبيض دسه فى يد سيد الذى حاول التمنع لكن المنجلاوى حسم الموقف :

— هذا مقابل وقود الدراجة وتعبك فى المجىء إلى هنا !

شكره سيد عند باب الصالون وهبط السلم إلى الخارج حيث كان الظلام قد هبط . اجتاحته رغبة عارمة فى معرفة ما بداخل الظرف لكنه تذكر آخر مرة جاء فيها من قريته . دسه فى جيبه وحمد الله على دراجته وإن لم تكن ملكه . ركبها خارجا إلى طريق الكورنيش حيث تجمهر الناس بطوله يستجدون نسمة هواء من صفحة النيل الراكدة . أسرع بدراجته وتسابق مع بعض السيارات مستمتعا بروح المغامرة التى اعترته تلك الليلة لأول مرة فى حياته . سرعان ما بلغ مصر القديمة فانحرف يمينا وسط الشوارع المظلمة الضيقة حتى بلغ الطريق الزراعى صوب منزله . وضع الدراجة فى بئر السلم الذى شهد أروع لحظاته مع نرجس التى كانت قد سمعت ضجيج الدراجة ففتحت الباب مبتسمة سعيدة بمقدم زوجها الذى دخل فى شبه تلصص أدهشها وأغلق الباب خلفه . احتضنها بعنف وقبلها بشوق افتقدته منذ زمن بدا فى نظرها طويلا . أخرج الظرف من جيبه وقدمه لها فأخذته متسائلة متعجبة :

ـــ ما هذا ؟!

ـــ لم أفتحه بعد لأعرف ما بداخله .. إنه بقشيش المعلم المنجلاوى !

وقفت نرجس تحت مصباح الغرفة الخافت . فتحت الظرف وإذا بها تعد مذهولة :

ـــ عشرة .. عشرين .. ثلاثين .. أربعين .. خمسين !!

شهقت بصوت لم تستطع كتمانه :

ـــ خمسون جنيها دفعة واحدة !!

دق سيد على جبهته صائحا دون أن يدرى :

ـــ ويسمى هذا بقشيشا ؟! إنه نصف القسط الأول الذى ضاع منى فى الأتوبيس بلا عودة !!

قالت نرجس والبريق الغجرى يومض فى عينيها الرماديتين :

ـــ ألم أقل لك إن على الإنسان أن يجرى وراء حظه ؟! لأن الحظ لا يجرى خلف أحد ؟!.

ـــ وأنا الذى أموت تعبا وإنهاكا كل شهر مقابل عشرين جنيها انكمشت هذا الشهر لتصبح عشرة جنيهات ..

كان سيد يلهث من الإثارة فأجلسته وذهبت إلى المطبخ وعادت بطبقين من البامية المطبوخة وقطعتين كبيرتين من اللحم ورغيفين . جلست قائلة :

ـــ سنحتفل الليلة بهذا المبلغ بأكل كل اللحم الذى لدينا .

لم يرد سيد بل مزق الرغيف وتناول لقمة كبيرة بالبامية والتهم قطعة من اللحم مضغها فى تلذذ واضح . نظرت نرجس إليه فى حب وقالت :

— ضع الظرف فى مكان أمين ! إنه ثروة !!

نظر سيد إلى الظرف الموضوع بجوار طبق الطبيخ وقال :

— لا أخفى عليك يا نرجس خوفى برغم فرحتى !!

— هل تعتقد أنه توجد مهنة فى الوجود بلا أخطار ؟! حتى مهنة التدريس لها أخطارها .. أتذكر .. عندما كنت فى المدرسة .. مدرسا كبيرا فى السن يشكو الربو نتيجة لاستخدامه الطباشير ..

ابتسم سيد وقال معلقا :

— لكن الربو أرحم من السجن والأشغال الشاقة ؟!

— بعد الشر عليك .. المهم الحرص والحيطة !!

توقف سيد عن الالتهام النهم :

— كيف أتحول من رجل قضاء إلى تاجر مخدرات ؟!

— وهل كان لنا خيار فى أى خطوة كتبت علينا ؟!

— عندك حق .. حاولت المستحيل ومع ذلك كأننى لم أفعل شيئا على الإطلاق .. كانت كل القوى التى واجهتنى أكبر من طاقتى على مواجهتها ..

ابتسمت نرجس ابتسامة ساخرة مريرة :

— حتى النشال الذى سرق الجنيهات المئة .. لم نعرف حتى شكله !!

— مثل القدر تماما !!

ضحكت نرجس محاولة إشاعة جو المرح مرة أخرى :

— يبدو أننا سنضيع الليلة فى الفلسفة .. ماذا قررت بخصوص عملك مع أبى ؟!

— لا أعرف حتى الآن !!

— طالما أن كل تصرفاته الآن تقول لك بوضوح : مع السلامة ! فلتحسم الأمر وتفاتحه فيه !!

— هل أتركه دون أن يطردنى بصراحة ؟!

— صارحه بأن تصرفاته معك تعلن عن رغبته الشديدة فى الاستغناء عنك .. ثم اترك له القرار .. حتى لا تبدو قليل الأصل !!

— لقد منحك الله من الدهاء ما يؤهلك للعمل بالسياسة !!

— إننى أريد أن أراك أعظم رجل فى الدنيا !!

أمسك يدها وقبلها برغم الطبيخ داخل فمه :

— أنت ملجئى الوحيد فى الحياة .. بدونك كنت قد انتهيت من زمن !!

— وأنا بك أشعر أننى أستطيع فعل المعجزات ..

فاض حبه لها فأغرق شواطئها . رأت الأمواج فى عينيه فقالت :

— لم تقل لى ماذا رأيت فى بيت المعلم المنجلاوى ؟!

— إنه قصر صغير بكل ما تشتهيه الأنفس من متع الحياة الحديثة ! لقد أدركت فى لحظة دخولى بيته يا حبيبتى أننا موتى نخرج من قبورنا كل يوم لنهيم على وجوهنا كالأشباح ثم نعود إليها مع حلول الظلام ..

— نحن موتى فعلا .. ولذلك لا نملك ما نخاف عليه !!

— حتى الليسانس .. أصبح فى نظرى أكذوبة كبرى لا تستحق كل هذه الآلام .. إن المعلم المنجلاوى لا يعرف القراءة والكتابة ويرسم اسمه رسما عندما يوقع على الأوراق .. ومع ذلك يجد الترحيب والبشاشة فى كل مكان .. أما أنا فلا أرى سوى العبوس والسخرية والاستهزاء فى

وجوه من أتعامل معهم .. لا لجرم ارتكبته سوى أننى سعيت إلى التعليم والتثقيف .

ــ سنعرف كيف نتعامل مع الناس بالأساليب التى يفضلونها أو التى يخافونها ؟!

ــ يبدو أننا نتكلم لغة غير لغة المجتمع تماما .. لكننى بدأت فى تعلم أبجديات هذه اللغة منذ أول خطوة لى فى بيت المنجلاوى .. وأرجو أن أجيدها فى أقصر وقت ممكن !!

ــ وبدلا من النقمة على الأغنياء .. علينا تقليدهم واتباع أساليبهم .. ولا يعقل أن كل الأغنياء اتبعوا طريق الخير .. فهو على ما يبدو طريق مسدود فى هذه الأيام .. وملىء بالحفر والمطبات على أحسن الفروض !!

ــ سنعرف كيف نجبر الآخرين على احترامنا وإفساح الطريق لنا !!

ــ وإذا كان المنجلاوى الجاهل يعرف أسرار اللعبة وقواعدها فأولى بك وأنت المثقف والقانونى أن تنبغ فيها !!

ضحك سيد وقد انتهى من طعامه :

ــ من يسمعنا الآن يقل إننا قررنا تدمير العالم والجلوس على تله ؟!

ــ لن نستفيد شيئا من تدميره .. بل سنحصل على نصيبنا منه .. ولا بد أن يكون نصيب الأسد .. أما من يقف فى طريقنا فلا بد من تدميره !!

ومضت عيناها الرماديتان ببريق غجرى مخيف مثير . إنه البريق الذى يعشقه ويخاف منه فى الوقت نفسه . قال متثائبا :

ــ أشعر برغبة شديدة فى النوم المبكر هذه الليلة !!

ابتسمت نرجس فى إغراء أنثوى لافح :

ـــ إن حر الليلة لن يسمح لنا بالنوم ..

ابتسم سيد بدوره متسائلا :

ـــ هل تتعاطين الحبوب بانتظام ؟!

ـــ طبعا .. فلا يعقل أن نأتى ببائس ثالث لا ذنب له فيما يجرى لنا !!

قال فى عزم وإصرار :

ـــ لن يكون بائسا عندما يأتى .. لأننا عرفنا الآن كيف نقتل البؤس فى مهده !! سنجعل منه أسعد طفل فى الدنيا !!

نهض وأمسكها بيده ثم قادها إلى الفراش . استرخت وطلبت منه إظلام الغرفة لكنه رفض هذه المرة قائلا :

ـــ إننى أعشق انعكاس الضوء فى عينيك الجميلتين .. فلا تحرمينى من نورهما الرمادى المشع ..

أسبلت نرجس عينيها فى ابتسامة منتشية سكرى بأحلام الثراء والجاه والسطوة .

٨

لم تكن دهشة سيد بالغة عندما فاتح المعلم حنفى فى إحساسه بأنه يرغب فى الاستغناء عن خدماته . بدا المعلم وكأنه فى انتظار هذه اللحظة على أحر من جمر عندما قال له :

ـــ إن كل إنسان ينام على الجانب الذى يريحه !!

ـــ معنى هذا أنك تصارحنى بالاستغناء عنى ؟!

ـــ إنك شاب وتستطيع الاعتماد على نفسك !!

قال سيد وقد استعاد رنة الكبرياء فى كلماته .

ـــ إننى لم أقبل هذا العمل إلا عندما جار الزمن علىّ !!

ـــ لم يضربك أحد على يديك كى تقبل عملا لا تصلح له !!

ـــ لا سمح الله يا معلم .. لن أفرض نفسى عليك أكثر من ذلك .. دراجتك البخارية فوق الرصيف أمام المحل .. وهى العهدة الوحيدة التى لدى .. وسأظل أدفع إيجار البدروم حتى يفرج الله علينا بسكن جديد ..

أبعد المعلم حنفى الجوزة عن فمه :

ـــ البدروم ليست له علاقة بالجزارة .. وأنا أحب أن تكون ابنتى قريبة منى ..

ـــ اطمئن .. لن نغادر البدروم قبل أن يفتح الله علينا بدخل يساعدنا على هذا !! وكل إنسان ينام على الجانب الذى يريحه على حد قولك يا معلم !

تململ المعلم حنفى فى مقعده ولم يرد . عندئذ ألقى سيد بالسلام وغادر المحل دون انتظار للرد والمعلم ينظر إليه حائرا مندهشا من موقفه غير المتوقع بعد أن آمن بأنه لن يترك العمل حتى لو لقى معاملة العبيد . لكن سيدا سار مرفوع الرأس بين الأزقة والشوارع الضيقة حتى بلغ كورنيش النيل لانتظار الأتوبيس . ملأ عينيه بمنظر النيل العريض المهيب الجليل ، وشحن رئتيه بنسيمه العذب برغم قيظ الظهيرة وحرارة

يوليو . جاء الأتوبيس مكتظا كعادته لكن سيدا تعلق بالباب ، فلم يكن لديه ما يخاف عليه هذه المرة . انطلق الأتوبيس وتتابعت الأشجار وأعمدة النور إلى أن وجد سيد نفسه فى محطة المعادى دون أن يدفع ثمن التذكرة . هبط سعيدا بتوفيره ثمنها .

سار فى طريقه إلى فيلا المنجلاوى . هاجمته مخاوف غامضة وتساؤلات حائرة أوحت إليه باحتمال تخلى المنجلاوى عنه فى هذه الفترة الحرجة . بلغ الفيلا فلم يجد سيارته الفاخرة . لا بد أنه غير موجود ! هل يدق الجرس ؟! أم يؤجل الزيارة لحين تواجده ؟! ربما كان موجودا فى حين أرسلت السيارة للتشحيم أو الصيانة ؟!

لم يسمح القلق لسيد بالعودة دون حسم الموضوع أو جس النبض على الأقل . وجد يده تضغط على الجرس عدة مرات وشرع فى العودة لكن الباب فتح أخيرا وبرز منه وجه سنارة الجذاب الباسم المنطلق فتفاءل سيد متسائلا :

ـــ هل المعلم موجود ؟!

ـــ لا ..

ـــ سآتى فى وقت آخر !

استدار سيد لكن سنارة جذبه من يده فانتشله من حيرته المتشائمة عندما قاده سنارة إلى داخل الفيلا . استسلم سيد له سعيدا حتى بلغ نفس الصالون حيث جلس الاثنان . تساءل سيد :

ـــ هل سيتأخر المعلم ؟!

ـــ سافر المعلم لشراء بصائع جديدة ولن يعود قبل ثلاثة أيام .. فهناك

مهام لا بد أن يقوم بها المعلم بنفسه ..

همّ سيد بالاستئذان لكن سنارة قاطعه بحسم :

ـــ لقد كلفنى المعلم بتلبية كل طلباتك إذا أتيت فى غيابه ..

قال سيد بصوت يمزج الفرح بالخوف :

ـــ ليس لى طلبات سوى العمل معه !

ـــ هل هذا قرار نهائى ؟!

رد متردداً فى تلعثم :

ـــ نعم ..

ـــ هل تدرك أخطار المهنة ؟!

لم يسترح سيد للسؤال لكنه كان قد وضع قدمه بالفعل على بداية الطريق :

ـــ لكل مهنة أخطارها .. ولا تخلو لحظة واحدة فى حياة الإنسان من الخطر !!

ـــ لكن أخطار هذه المهنة بالذات قد تقضى على مستقبل الإنسان أو حياته فى لحظة !!

تكدر سيد لإصرار سنارة على إرهابه ، لكنه أخذ كلامه على محمل الغيرة التى تدفعه إلى إبعاده عن هذه الخيرات قبل أن يلمسها بنفسه . سأله متشجعا :

ـــ وأنت ؟! ما الذى اضطرك إلى هذه المهنة برغم إدراكك لأخطارها ؟!

ـــ المضطر يركب الصعب كما يقولون !!

ـــ وهل لى أن أعرف هذا الصعب الذى اضطرك إلى ركوبه ؟!

ـــ كنت أعمل من قبل مدربا فى نادى الرماية الدولى .. وقد حصلت بالفعل على بطولات .. لكن ظروف أسرتى الفقيرة أجبرتنى على عدم إكمال تعليمى وقنعت بوظيفة المدرب ..

تذكر سيد أحلامه القديمة بمشاركة السادة مهرجان صيد البط عند بحيرة قارون بالفيوم . لكنه استدرك متسائلا :

ـــ وما العيب فى هذا ؟! إن العمل .. أى عمل .. لا يمكن أن يكون عيبا !

ـــ العيب فىّ أنا ؟!

ـــ كيف ؟!

ـــ منذ صغرى وأنا عاجز تماما عن مقاومة انبهارى بالجميلات .. حاولت مرارا أن أكبح جماح نفسى لكن بمجرد أن تقع عيناى على فاتنة جميلة مغرية فإن لعابى سرعان ما يسيل ..

لا يعرف سيد لماذا تذكر نرجس ، لكنه تخلص من ضيقه متسائلا :

ـــ ما علاقة هذا الموضوع بموضوع حديثنا ؟!

ـــ فى نادى الرماية الدولى حمام سباحة تتبختر حوله الجميلات من كل الأجناس .. وفى ساعة نحس كانت حسناء إيطالية فى مايوه بيكينى مرعب تمر بالقرب منى وأنا أقوم بتنظيف بندقية أحد الرماة .. وإذا برصاصة تنطلق منها لتستقر فى قلب عم عثمان بواب النادى البائس ..

ذعر سيد للقصة المرعبة ، وذهل للأسلوب البارد الذى يقص به

سنارة الحادثة الدموية المأسوية . تساءل سيد :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟!

— أبدا .. واجهت تهمة الإهمال والقتل الخطأ .. وحكم علىّ بالسجن سبع سنوات .. وفى السجن فكرت كثيرا فى أمر مستقبلى الذى ضاع لأن أحدا لا يرضى بتوظيف أصحاب السوابق .. وتعرفت على أحد زملاء المنجلاوى فى السجن فنصحنى بالعمل معه .. وبالفعل رحب بى كما رحب بك .. ومنذ ذلك اليوم والخوف عشش بداخلى حتى فقدت الحياة طعمها تماما برغم أن كل طلباتى مجابة !!

— لكن منظرك يوحى بعكس ذلك تماما ..

— لا تنخدع بالمظاهر .. فأنا أتمنى اليوم الذى أهرب فيه بجلدى وبحياتى من هذا الرعب الأزلى !!

ذهل سيد لصراحة سنارة لدرجة أنه شك فى نواياه فسأله :

— وهل يعرف المعلم نواياك هذه ؟!

— يعرفها أو لا يعرفها .. هذا لا يهم !! وإنما المهم أنه واثق من أننى من اليائسين الذين لا أمل لهم سواه ..

بدأ سيد فى الشعور بصدق سنارة وسطوة المنجلاوى فداخله الرعب :

— ويبدو أنه اكتشف اننى واحد من هؤلاء اليائسين .. لا شك أن فراسته لا تخطئ ..

— إنه أخطبوط كبير متشعب فى كل مكان .. بحيث يصعب القضاء عليه فى مقتل ..

سعد سيد لهذا الكلام الذى أثار داخله الطمأنينة :

— إذا فالمهنة ليست مرعبة كما تظن !!

— من الممكن أن تكون حادثة نادى الرماية قد أصابتنى بالرعب الذى يؤكد لى أن أية مصيبة يمكن أن تقع على رأسى فى أية لحظة !

سرت الطمأنينة فى أعماق سيد :

— وما رأى زوجتك فى مهنتك ؟!

— لست متزوجا .. أما أنا فأعرف أنك متزوج من ابنة المعلم حنفى .. ولذلك من الضرورى أن تؤمن هذا الجانب حتى لا يتحول إلى ثغرة خطيرة فى العمل ..

— أنا لا أخفى شيئا عن زوجتى .. بل كانت الدافع وراء تقدمى للعمل مع المعلم المنجلاوى !!

رفع سنارة حاجبه الأيسر فى دهشة سعيدة :

— المهم أن تكون زوجتك كاتمة ممتازة للأسرار .. حتى لا نتعرض جميعا للمصائب والأخطار !

— لا تخف إطلاقا من هذه الناحية !

— ستمر أولا بفترة تدريب قبل أن تشترك فى المهام الكبيرة ؟!

ابتسم سيد متسائلا :

— وهل تحتاج هذه المهنة إلى تدريب ؟!

— إذا لم تكن مهن العالم كلها فى حاجة إلى تدريب .. فإن هذه المهنة بالذات فى حاجة إلى تدريبات لا يمكن أن تخطر على بالك !!

— كيف ؟!

ـــ كل ما أستطيع أن أقوله لك الآن .. أنك ستبدأ عملك مشرفا على توكيل السيارات الذى يملكه المعلم فى وسط البلد .. ويا حبذا لو اشتركت زوجتك معك طالما أنها تعرف كل شىء ..

اهتز سيد فى مقعده كمن لدغته نحلة :

ـــ وما علاقة زوجتى بكل هذا ؟! أرجوك لا تقحمها فى هذه الأخطار !

ـــ ليست هناك أخطار فى هذا العمل بالذات .. وخاصة أن وجودها سيضيف كثيرا من الأمان للتوكيل .. بالإضافة إلى حصولها على أجر كبير ..

ـــ أمتأكد أنت مما تقول ؟!

ـــ إننا الآن زملاء فى عمل واحد يستدعى أن نخاف على بعضنا البعض .. فأى خطر يتعرض له واحد منا .. يتعرض له الكل فى نفس اللحظة !!

ـــ أنا تحت أمرك وأمر المعلم !

ـــ إذا فلنبدأ العمل ..

نهض سنارة وغاب داخل إحدى الغرف . سمع سيد صوت حوار دائر حاول أن يتبين معالمه لكنه عجز . شغل نفسه بمشاهدة الصالون الفاخر الزاخر بالتحف الثمينة واللوحات العارية . لكن سنارة سرعان ما عاد وفى يده ظرف أبيض رقص له قلب سيد . ابتسم سنارة وهو يدسه فى يد سيد باسما :

ـــ ألف جنيه لتبدو بالمظهر الجديد اللائق بك وبزوجتك !

غرق عقل سيد فى دوامة من النشوة والخوف والقلق ، لكنه قاومها :

ـــ هذا أكثر مما أستحق .. فلم أفعل شيئا بعد كى أنال هذا المبلغ دفعة واحدة ..

ـــ لا تقل هذا .. إنه مبلغ تافه فى نظر المعلم !! اذهب واشتر كل الملابس التى تشتهيها مع زوجتك ..

عقد الذهول لسان سيد فاستأنف سنارة :

ـــ وقبل أن أنسى .. لقد خصص المعلم لك شقة مفروشة فى عمارته بمصر الجديدة .. وعليك الانتقال إليها فى ظرف أسبوع على أكثر تقدير .. إذ لا يعقل لمدير توكيل لسيارات فاخرة أن يسكن فى مصر القديمة ..

قاوم سيد ذهوله قائلا :

ـــ لكننى لا أملك ما أدفعه إيجارا لشقة مثل هذه !!

ـــ آن الأوان لتغير طريقتك القديمة فى التفكير والتعامل مع الناس .. إنك لن تتعب نفسك حتى فى توقيع عقد إيجار .. فالمعلم كريم جدا مع هؤلاء الذين يواجهون أخطار المهنة معه ..

كان حماس سيد بالغا هذه المرة بحيث لم تقع كلمة « أخطار » من نفسه وقعا مخيفا ، لكنه قال :

ـــ لكننى غير خبير بالمرة بإدارة الأعمال التجارية ؟!

رد سنارة فى حسم :

ـــ ستتعلم كل شىء فى أوانه .

نهض سنارة وكأنه ينهى الزيارة . قام سيد تلقائيا ومد يده مستأذنا فشد سنارة عليها قائلا :

ــ لكل شيء فى هذه الدنيا ثمن .. وكلما زادت قيمته ارتفع ثمنه ..

لم يستوعب سيد كلمات سنارة بل خرج إلى حيث الشمس الساطعة التى تلهب ظهور المارة بسياطها التى لم يشعر بها . فقد كان المبلغ الدسم السمين فى جيبه بمثابة عالم خاص احتواه وعزله عن كل ما يشعر به البشر . أشار إلى تاكسى بالوقوف لكن السائق نظر إليه باحتقار وانطلق بعيدا . لم يهتم سيد وسار كالحالم على طريق الكورنيش فى اتجاه مصر القديمة . ألف جنيه بهذه البساطة وهو الذى صارع إخوته من أجلها حتى يتم تقسيطها على سنوات لا يعلم عددها سوى الله . ماذا ستقول نرجس عندما تعلم بخبر انتقالهما من جحر مصر القديمة إلى شقة مصر الجديدة الفاخرة ؟ إنها لن تصدق ، وإذا صدقت فسوف يغمى عليها !! هل يمكن أن تتبدل الأحوال هكذا بين يوم وليلة ؟! هل لا نزال نعيش فى عصر المعجزات والخوارق ؟! إنهما لا يملكان مجرد الثياب المعقولة التى تمكنهما من الذهاب إلى محلات الثياب الفاخرة الأنيقة !! ماذا سيقول الباعة عنهما ؟! ربما أبلغوا الشرطة للقبض على اللصين الذين يحاولان اقتحام عالم السادة !! لا .. يجب ألا يتـــرك نفسه لهذه الهواجس والأوهام ! إن نرجس قادرة أن تفعل أى شيء ! وهى بجمالها المبهر المثير تبدو قادمة من أسرة أمراء ونبلاء برغم ملابسها المتواضعة . ماذا سيقول المعلم حنفى عندما يتركان البدروم بسرعة لم يتوقعها أحد ؟! وماذا سيكون حال نعيمة ؟! لقد أتى اليوم الذى سترد نرجس كل صفعاتها وركلاتها ودسيستها دون أن تفتح فمها بكلمة واحدة ! يكفى خروجها متبخترة كالعروس إلى مصر الجديدة بلا عودة . إن الهوة شاسعة بين جحور الهوام وعالم السادة ، لكنهما عبراها فى غفلة من الزمن الذى كان

لهما بالمرصاد دائما ! مرحبا بالأخطار إذا كانت مواجهتها تحقق هذه الخوارق ! إن الإنسان يعيش مرة واحدة فقط ، ولن يموت إلا فى اليوم الذى كتبه له الله ! أما الحياة فى الظل وعلى الهامش من أجل آمال هزيلة قد لا تتحقق ، فهى الموت بعينه . وإذا تحققت فلن يترك الإنسان الظل ، وإن كان عذابه سيتضاعف لأنه سيرى النور دون العيش فيه . ربما منحه ليسانس الحقوق القدرة على مخالطة السادة ، لكنه لن يجعله واحدا منهم فى يوم من الأيام ، فالمال هو الفيصل بين عالم السادة ودنيا الكادحين بلا أمل . لكن سؤالا ألح على وجدان سيد دون أن يجد له إجابة شافية !! ما سر الصداقة بين المنجلاوى وحنفى برغم الفجوة الواسعة بينهما ؟!

لم يشغل سيد نفسه كثيرا بالبحث عن إجابة لأن خواطره المحمومة كانت قد قفزت وطارت إلى بحيرة قارون حيث مهرجان السادة لصيد البط . لم يجد إجابة مقنعة مرة أخرى للسر فى إلحاح هذا الخاطر عليه ، برغم أنه لم ير البحيرة من قبل ، ولم يمسك بندقية طيلة حياته ، وحتى عندما طلب للتجنيد كان سعيدا لرغبته فى تعلم الرماية ، لكن الدور لم يصبه وأعفى منه . هل هى مجرد أصداء لحكايات أبيه فى طفولته وصباه المبكر ؟! لا يعرف .

أحس بالعرق يغسل وجهه ، وينهمر داخل ملابسه . كان قد سار المسافة كلها إلى بيته تحت لفحات الهجير دون أن يدرى .

٩

كادت نعيمة تجن من التحركات التى لمحتها من حين لآخر فى البدروم بعد طرد سيد من دكان المعلم حنفى . عندما أبلغها المعلم بطرده كانت سعيدة لانتقامها . واستعدت للاستمتاع بالتشفى بمراقبة البدروم سواء من وراء خصاص نافذة غرفة نرجس القديمة والتى أصبحت غرفة طفليها الآن ، أو من باب الشقة حيث يمكن أن تلتقط كلمة أو أكثر دون أن يلحظها أحد . لكن ما لاحظته كان عكس ما توقعته تماما . فبدلا من الحزن والوجوم على أقل تقدير سمعت الضحكات والصيحات البهيجة التى يعقبها غلق باب البدروم . واستراحت نعيمة إلى خاطر أكد لها أنهما يحاولان إخفاء مصيبتهما حتى لا تشمت فيهما . لكن الخاطر سرعان ما تلاشى عندما وجدت نرجس تعود ذات مرة بمفردها فى تاكسى وهى ترتدى فستانا مثل ذلك الذى ترتديه الممثلات فى أفلام التلفزيون . كانت جميلة فاتنة مبهجة مبتهجة وهى تقول لسائق التاكسى : احتفظ بالباقى ! وبعد ساعتين جاء سيد بنفس الطريقة مرتديا حلة فى منتهى الأناقة ويحمل حقيبتين جديدتين ، بدا ثقلهما من طريقة حمله لهما ، ثم دخل .

ارتمت نعيمة على الكرسى خلفها غير مصدقة لما تراه . ما الذى جرى فى هذه الدنيا ؟! برق فى ذهنها خاطر ملأ جوانبها ببرد الراحة . إن نرجس جميلة ومغرية ولا يمكن أن يحدث لها مثل هذا التحول الخطير إلا إذا باعت نفسها !! ومن الواضح أن سيدا هذا لا كرامة له ولا شرف ، فقد آثر

سلوك الطريق السهل والعيش من جسد زوجته . غلا الدم فى عروقها بمزيج من الحقد والاحتقار والرغبة فى انتقام جديد . وبمجرد أن عاد زوجها من دكانه لتناول الغداء فاتحته على المائدة بحضور طفليها :

ــ هل لاحظت يا معلم الفساتين الفاخرة التى ترتديها نرجس والحلل الأنيقة التى عرفت طريقها إلى جسم سيد بعد طرده من الدكان ؟!

كان حنفى منهمكا فى تناول قطعة ضخمة من الكبد البقرى فقال دون أن ينقل عينيه من الطبق أمامه :

ــ يا شيخة حرام عليك .. إنها مجرد أوهام فى ذهنك !! ماذا تريدين أن أفعل بعد أن طردته من الدكان .. وحرمت من رؤية ابنتى لمدة أسبوع بأكمله ؟!

رفعت حاجبها الأيسر مندهشة وأحدثت بشفتيها صوتا كمص الليمون :

ــ لم أطلب منك يا معلم أن تفعل شيئا !! كنت أدردش معك فقط ! وعلى العموم سأصمت تماما إذا كنت لا ترغب فى سماع صوتى !!

نظر إليها باسما :

ــ أحب سماع صوتك دائما !

قامت بضبط المنديل المشدود على رأسها والمائل على جبهتها :

ــ إذا .. ما رأيك فيما قلته ؟!

ضحك وقال :

ــ لا بد أنهما ربحا ورقة يانصيب !!

ــ إن الحظ السعيد وسيد الرمادى ضدان لا يجتمعان فى مكان واحد !

كان الطفلان يتناولان طعامهما فى صمت لكن ما يدور لم يغب عن إدراكهما . قال المعلم :

ــ إذا .. فهى مجرد أوهام كما قلت لك !!

ــ أنا لست مجنونة يا معلم .. وإنما أريد أن أقول لك بصراحة إنك نائم فى العسل لا تدرى شيئا عما تفعله ابنتك هى وزوجها !!

نظر إلى زوجته بمزيج من الدهشة والاستفهام والشك :

ــ ماذا تقصدين يا نعيمة ؟!

ــ لا أستطيع أن أوضح أكثر من هذا .. فأنت سيد العارفين !!

كرر سؤاله بهدير صادر من أعماقه :

ــ ماذا تقصدين يا نعيمة ؟!

لم ترد فإذا به يقلب المائدة فوقها فصرخ الطفلان هاربين إلى غرفتهما فى حين ظلت نعيمة تصرخ وهى تضع يدها على بطنها : بطنى .. بطنى . تذكر المعلم أنها حامل فأعاد المائدة إلى وضعها الصحيح تاركا الأطباق والأكواب متناثرة حول زوجته التى ساعدها على النهوض ، محاولا كتم صراخها بوضع يده على فمها ، لكنها عضته بشدة مما جعله يصرخ هو الآخر ، لكنه استدرك موقفه وهو يجلسها على أقرب كرسى :

ــ قلت لك ألف مرة إياك من استفزازى .. كنت على وشك أن أقتلها فى تلك الليلة التى اكتشفت فيها حبها لسيد .. والآن تريدن مرة أخرى أن أقتلها وأدخل السجن من أجل أوهام فى ذهنك . ألا تخافين على مستقبل طفليك ؟! أو أطفالك إذا حسبنا القادم فى الطريق ؟!

وضعت نعيمة يدها على بطنها وهى تتأوه وتقول :

ــ أرجو ألا تكون قد قتلته ؟!

أحس حنفى بلسعة الندم من جراء فعلته وربت على بطنها :

ـــ سلامته ألف سلامة !! خيرا إن شاء الله ..

اطمأنت نعيمة إلى أنه أصبح طوع بنانها فقالت فى دلال :

ـــ لم أعرف يا معلم أنك أصبحت بهذه القسوة ؟! كنت أظن أننى لا يمكن أن أهون عليك بهذا الشكل ؟!

قبل منديل رأسها بعد أن جذب مقعدا وجلس إلى جوارها :

ـــ أنت لا تعرفين طيبة قلبى ؟! كما أنك لا تعرفين مكانتك فى هذا القلب الطيب ؟!

سمعا دقات خفيفة على باب الشقة . تساءل المعلم فى دهشة :

ـــ إنها ساعة لا يأتينا فيها أحد !!

نظرت نعيمة إلى الأطباق والأكواب المتناثرة ، وأسرعت بوضع حطام بعضها فى السليم منها وحملتها مسرعة إلى المطبخ قائلة :

ـــ لا أريد أن يرى أحد ما فعلته يا معلم ؟!

ساعدها المعلم دون أن ينبس ببنت شفة . انتهت مهمة التنظيف فى لحظات وأسرع المعلم لفتح الباب . ذهل عندما وجد أوهام نعيمة تتجسد أمام عينيه فى الوقت الذى تأكد فيه أنه ظلمها . ربما كان كل ما قالته حقيقيا ؟! عندئذ ستكون مأساة ما بعدها مأساة . كانت نرجس ترتدى فستانا أخضر يكشف عن خمر صدرها وذراعيها ، فى حين ومضت عيناها الرماديتين ببريق ماسى باسم جعل المعلم لا يعرف ماذا يفعل أو يقول ؟! بينما وقف سيد خلفها مرتديا حلة رمادية برغم القيظ الذى لا يحتمل أية حلل مهما كانت خفيفة .

كانت نعيمة فى سرعة البرق وراء زوجها ، سعيدة بتأكده من أن

ما سمعه منها ليس مجرد أوهام . عبرت نرجس حاجز الصمت ببساطة :

— مساء الخير يا بابا ..

لأول مرة يسمع المعلم كلمة « بابا » هذه . كانت تناديه قبل ذلك بكلمة « آبا » . نظر إلى زوجته فى حرج ثم قال لهما :

— تفضلا .. أهلا وسهلا ..

جلست نرجس وسيد فى الصالة ، وفى الطرف الآخر جلس المعلم وزوجته التى زخرت نظراتها إليه بالمعانى . قال المعلم متسائلا :

— لاحظت أخيرا أن أحوالكما قد تغيرت تماما ؟!

كان سيد على وشك أن يرد لكن نرجس أسكتته بردها الحاسم :

— جئنا للسلام والتحية قبل السفر !

دقت نعيمة على صدرها عندما عجزت عن كتمان حب استطلاعها :

— السفر !! إلى أين ؟!

أجابت نرجس والتشفى يقطر من كلماتها :

— إلى أستراليا !

ذهل المعلم حنفى للمعلومات الجديدة المتدفقة فقال لسيد :

— ظننت أنك ستعمل مع المعلم المنجلاوى .. وخاصة أنه كان يلح عليك من قبل .. ولذلك كنت على وشك أن أحذرك منه .. فقد طلب منى يد نرجس من قبل ورفضت .. كما أن صبيه سنارة كان يفترسها بنظراته كلما أتت إلى الدكان فى وجوده .. كما أنك لا تعرف نوع تجارته !!

تدخلت نعيمة لعزف النغمة نفسها :

— ولذلك أصر المعلم حنفى على إبعاد سيد عن الدكان حتى

لا تذهبى إليه ويراك المنجلاوى وسنارة مرة أخرى !!

كان دهاء نعيمة مكشوفا وعاريا أمام نرجس بحيث نظرت إليها نظرات أسكتتها على الفور فى حين استأنف المعلم كلامه مع سيد :

ــ ألا تعلم أن سنارة هذا من أصحاب السوابق .. فقد قتل رجلا ببندقيته عندما حاول منعه من الاعتداء على زوجته !!

كان سيد على وشك تصحيح معلومات المعلم حنفى لكن نرجس لم تترك له الفرصة حتى لا تنكشف علاقته بسنارة والمنجلاوى . قالت فى حسم :

ــ إننا نتكلم فى موضوع ليست له علاقة بالموضوع الذى جئنا من أجله .. لقد جئنا لتوديعكما .. فالطائرة ستقوم بعد منتصف الليل .. وأمامنا بعض الإجراءات لإتمامها !!

أحس المعلم حنفى بغصة قاسية فى قلبه فقال متسائلا :

ــ إذا .. فموضوع أستراليا حقيقى ؟!

قال سيد بلهجة المتسائل الواثق من نفسه :

ــ وهل تعتقد أننا جئنا هنا يا معلم لمجرد الكذب عليك ؟!

قال المعلم مستسلما :

ــ لم أقل هذا ؟! لا سمح الله !!

لم تستطع نعيمة منع نفسها من التساؤل :

ــ ومتى تم هذا ؟!

قالت نرجس باقتضاب مثير :

ــ فى نفس اليوم الذى طرد فيه سيد من الدكان !!

لم يهتم المعلم بغمز ابنته ولمزها وتساءل :

ـــ كيف ؟!

ـــ عندما أدرك سيد أنه لم يعد له عيش فى هذا البلد .. ذهب إلى صديق كان قد أغراه من قبل بالهجرة إلى أستراليا .. ولحسن حظه فوجئ بأن رجل الأعمال المصرى الذى يعيش فى أستراليا والذى طلب هجرة هذا الصديق ، كان قد أرسل إليه دعوتين . وقد يئس الصديق من البحث عمن يقبل الدعوة الأخرى حتى قابله سيد وتمت كل الإجراءات فى مدة لم تزد على أسبوع .. وها نحن فى طريقنا الليلة إلى آخر العالم .

ذهل سيد لقدرة نرجس على اختراع هذه التفاصيل التى لم تكن تخطر له على بال . كانا قد اتفقا قبل الزيارة على إخبار المعلم بهجرتهما ، لكن هذه التفاصيل الدقيقة المذهلة أوشكت بسيد على تصديقها هو الآخر . إنه يكتشف فى زوجته ، مع مرور الأيام ، طاقات وقدرات تجعله أحيانا يشعر بالعجز فى وجودها . قال للمعلم :

ـــ لم نكن نريد ترككما بهذه الطريقة .. لكن للضرورة أحكام !!

قال المعلم فى يأس حزين :

ـــ لم أتوقع فراقكما بهذه السرعة ؟! لكن أين أستراليا هذه ؟! ألا يمكننا زيارتكما من حين لآخر ؟!

أجابت نرجس :

ـــ لا أظن يا بابا .. فالتذكرة الواحدة لا تقل عن ألف جنيه .. كما أن السفر بالطائرة يستغرق يوما بأكمله !!

فاجأها المعلم بسؤال لكنها كانت مستعدة دائما كعادتها :

ـــ ومن أين حصلت على الألفين ؟! بالإضافة إلى ثمن ملابسكما الأنيقة ورسوم السفر وإجراءاته ؟!

قالت نرجس بلا لحظة تردد واحدة :

ـــ رجل الأعمال المصرى المقيم فى أستراليا .. قام بسداد كل هذه المصروفات .. على أن يخصمها من أجرنا بعد ذلك فى أستراليا !

ـــ وكيف أرسل هذه المبالغ ؟!

قالت نرجس ببساطة متناهية :

ـــ مع الدعوتين !

ـــ وماذا ستفعلان هناك ؟!

ـــ سيعمل سيد فى الشئون القانونية لمؤسسات رجل الأعمال هذا .. كما سيكمل دراسته أيضا .. أما أنا فلن أمكث فى البيت كالعادة .. بل سأعمل مربية أطفال مقابل أجر ضخم بالنسبة لأى أجر هنا ..

فاجأها المعلم بسؤال آخر :

ـــ وهل أوراق السفر معكما الآن ؟!

أجابت بمنتهى الثقة والبساطة :

ـــ إنها مع صديق سيد لإنهاء بعض الأختام والاعتمادات .. وسنمر عليه فى بيته فى مصر الجديدة لأنه سيسافر معنا هو وزوجته على نفس الطائرة ..

وقع المعلم حنفى بين أمواج اليأس التى شدته إلى القاع :

ـــ يعز علىّ فراقكما بهذه الطريقة .. لكن ما يهون علىّ هذا الفراق أنكما لا بد أن تأتيا لزيارتنا .. أو نذهب نحن لزيارتكما .. كما أرجو ضرورة التراسل بالخطابات .. وإن كنت أفك الخط بصعوبة إلا أن نعيمة أتمت تعليمها الابتدائى ..

ابتسمت نعيمة بكل ثقة وفخر قائلة :

— أصبح لنا ظهر نستند إليه فى بلاد بره !

أسكتتها نرجس بحجر من فمها :

— كما استندت إليك بعد زواجك من بابا !!

قال المعلم مخففا من حدة التوتر المفاجئ :

— لا بد أن أقوم بتوصيلكما للمطار !

قال سيد :

— لا داعى لتعبك يا معلم .. فالطائرة لن تقوم قبل عشر ساعات .. كما أننا سنقضى معظم هذا الوقت عند صديقى فى مصر الجديدة ..

أثار سيد إعجاب نرجس عندما وجدته يعزف النغمة بنفس مهارتها تقريبا . نهضت قائلة :

— لقد حان الوقت للذهاب إلى مصر الجديدة ..

نهض سيد ثم المعلم ونعيمة ، فأخرجت نرجس من حقيبتها الخضراء الصغيرة الأنيقة مفتاحا علاه الصدأ إلى المعلم :

— مفتاح البدروم يا بابا !!

أخذه المعلم بيد مرتعشة فى حين قالت نعيمة لنرجس :

— حسين وسعاد فى غرفتهما إذا كنت ترغبين فى توديع أخويك الصغيرين ؟

— لا داعى لإزعاجهما من النوم .. فإن المذاكرة فى انتظارهما ..

تحركت نرجس صوب باب الشقة فاحتضنها أبوها وقبلها محاولا منع الدموع التى تجمعت فى عينيه ، فى حين شدت نعيمة على يد سيد . خارج الباب المفتوح كانت الحقيبتان اللتان حملهما سيد هابطا السلم وخلفه نرجس والمعلم فى حين هرعت نعيمة إلى النافذة لتطل منها عليهم .

لاحظت نرجس لأول مرة جدار السلم بطلائه الجيرى المتساقط فشعرت باشمئزاز لم يخفف منه سوى منظر بئر السلم الذى تحمل له أجمل الذكريات برغم رائحة العفن والطوب المكشوف المتآكل بفعل الرطوبة وطفح المجارى فى بعض الأحيان .

فى الشارع امتزج الهجير بالأتربة المتصاعدة . من حين لآخر كانت نرجس تخطف بعض نظرات من نافذة نعيمة التى حاولت الرد بالابتسام لكنها فشلت . سرعان ما توقف تاكسى من تلقاء نفسه وهبط السائق فاتحا السيارة من الخلف حيث ساعد سيد فى وضع الحقيبتين . سلم سيد على المعلم حنفى الذى أوشك على البكاء قائلا :

ـــ سامحنى يا بنى .. مع السلامة فى كل خطوة ..

سلمت نرجس بدورها ثم دخلت التاكسى وراء زوجها . انطلق التاكسى مثيرا للأتربة الناعمة التى اجتاحت المعلم حنفى فى وقفته . استقرت نرجس فى مقعدها مؤمنة تماما أنها لم تكذب على أبيها . صحيح أنهما لن يغادرا القاهرة ، لكنهما انتقلا إلى مكان أبعد من أستراليا . إن المهاجرين إلى أستراليا يعودون من حين لآخر لرؤية وطنهم وأهلهم ، أما نرجس وسيد فلا عودة لهما . إنها النظرة الأخيرة منهما على المكان الذى تركته أمها من قبل بلا عودة أيضا .

ابتسم سيد وقال متسائلا :

ـــ لم أعرف أنك روائية من طراز رفيع ؟!

أجابت نرجس والتاكسى يخرج من حدود مصر القديمة :

ـــ إن الحياة نفسها رواية والشاطر من يؤلفها على هواه !

١٠

استيقظ سيد على ضجيج أتوبيس بجوار نافذة البدروم المطلة على الشارع ، لكنه عندما بلغ درجة اليقظة الكاملة أدرك أنه ضجيج طائرة هابطة فى مطار القاهرة وأنه فى الشقة الفاخرة التى أسسها لهما المعلم المنجلاوى فى عمارته التى تقع عند أطراف مصر الجديدة ، والتى أقام فى دورها الأعلى فيلا أنيقة بها حمام سباحة . أما شقة سيد فكانت فى الطابق السابع وتطل على صحراء مصر الجديدة وطريق المطار بسياراته المسرعة ذهابا وإيابا .

فتح سيد عينيه ونظر فى ساعته الثمينة التى يصر على لبسها فى أثناء النوم ، فهى الأولى فى حياته ، وجدها السادسة صباحا . تأمل غرفة نومه الجميلة التى تجمع بين اللون الأبيض والرمادى الفاتح والأحمر النبيذى . لم يسأم تأملها يوميا طوال شهر كامل منذ مجيئه إليها . جلس متربعا فواجه مرآة التسريحة الضخمة ذات الإطار الرمادى الفاتح المنقوش كالحرير . رأى فيها نرجس فى قميصها الأحمر الشفاف إلى جواره لم تستيقظ بعد . آه من هذه الملابس الداخلية الشفافة التى تعلمت نرجس ارتداءها ؟! إنها تزيدها فتنة على فتنة . فقد وضع جمالها أخيرا فى الإطار الجدير به . انحنى عليها وقبلها فى شفتيها فتململت فى نومها كأنها تحلم ثم ابتسمت وازدادت التصاقا به دون أن تفتح عينيها . انتقلت سخونتها إلى مجرى الدم فى عزوقه لكنه نهض مسرعا مبتعدا .

فاليوم هو يوم افتتاح توكيل السيارات الذى فوجئ سيد بأن المعلم قد كتبه باسم سيد الرمادى وشركاه دون أن يدفع سيد مليما واحدا .

جلس سيد فى الشرفة المطلة على الصحراء يحاول استيعاب معنى الأحداث التى مرت به فى الشهر المنصرم ، لكنه لم يستطع جمع شتات فكره . لماذا أصر المنجلاوى على كتابة التوكيل باسم سيد وسنارة ونرجس ؟ هل بلغت ثقته فيهم هذا الحد ؟! إن المحل الفاخر المغطى بالمرايا من الداخل تكلف تأثيثه وخلو الرجل المدفوع فيه ما لا يقل عن ثلث مليون جنيه !! أما السيارات الست الموجودة بداخله فهى من أحدث وأفخر طراز ، وثمنها هى الأخرى لا يقل عن ثلث مليون جنيه !! فهل يعقل أن يكتب هذا باسمه وهو الذى كان يعتبر الجنيه الواحد — منذ شهر واحد فقط — ثروة يجب الحرص عليها ؟!

كثيرا ما سأل سنارة أسئلة كثيرة ، لكنه لم يحصل على إجابة شافية واحدة !! كان سنارة قد دربه على قيادة السيارات أولا ، ثم أهداه المعلم سيارة فاخرة فى نفس لون عينى نرجس . وهى الملاحظة التى لم يسترح إليها سيد . فليس من حق المنجلاوى أن يتكلم عن عينى زوجته مهما كانت أفضاله عليه !! ومع ذلك لم يعبر سيد عن هذا الرأى طالما الأمر لم يتعد حدود الكلام .

لكن سيد فوجئ بالمنجلاوى يأمر سنارة بتدريبه على الرماية . إنها حلم سيد القديم وهواية السادة المفضلة ، لكن أن يتعلمها بأمر صادر من المنجلاوى فهذا أمر ذهل له ولم يستطع استيعابه . وعندما سأل سنارة عن السر فى هذا حاول التملص أولا وعندما ألح نصحه بعدم الاستمرار فى أسئلته الكثيرة المتكررة لأنه سيعرف كل شىء فى زمانه ومكانه

المحددين !! ورضخ سيد وتردد مع سنارة طوال عشرين يوما على صحراء العباسية وصحراء أبو صير ومقابر باب النصر ، وأثبت مهارة فائقة فى الرماية أدهشت سنارة نفسه الذى صرح له فى النهاية بأنه أسرع من تعلم على يديه ، وإن لم يستطع أن يبزه بطبيعة الأمر ، فقد كان سنارة من أمهر الرماة الذين لا يشق لهم غبار ، فلم يترك هدفا أمام سيد إلا وأصابه فى السويداء .

وجد سيد حلمه القديم وهو يوشك أن يتحقق . صرح لسنارة برغبته فى الذهاب إلى بحيرة قارون فى موسم صيد البط للاشتراك مع الرماة ، لكن سنارة أجابه بأنه تعلم الرماية كى يدافع عن نفسه وليس لصيد البط . انتهز سيد هذا التصريح وتساءل : أدافع عن نفسى ضد من ؟! فعاد سنارة إلى اللف والدوران وقال إن المهنة خطيرة وفى حاجة إلى استخدام السلاح ، لكنه وعده فى النهاية بالاشتراك فى مهرجان بحيرة قارون .

إن الأحلام تتحقق بأسرع مما كان يحلم ! فاليوم سيصبح صاحب توكيل سيارات فى قلب القاهرة الساحرة التى لم يكن يحلم بالعيش على هامشها . لكن الشىء الوحيد الذى نغص أحلامه ، كان نظرات المنجلاوى وسنارة إلى نرجس . وكثيرا ما تذكر كلام المعلم حنفى عنهما وكيف رفض تزويجها من المنجلاوى . إذاً فقد كان المعلم صادقا فى كلامه . لكن ما سر الصداقة بين حنفى والمنجلاوى برغم الفارق الاجتماعى والاقتصادى الشاسع ؟ هل سهرات الأنس والفرفشة تكفى لهذه الصداقة ! أم أن المنجلاوى كان يتردد من أجل عينى نرجس ؟! لو كان هذا صحيحا فلا بد أن معركة قادمة فى الطريق بينه وبين

المنجلاوى ؟! إن النظرات الوقحة يمكن تحملها لكن تعدى هذه الحدود يعد أمرا خطيرا للغاية ؟! لكن هل يستطيع تحدى المنجلاوى بكل جبروته وسطوته ؟! حتى سنارة نفسه أخبره عند أول لقاء بينهما أنه سجن سبع سنوات لأنه لم يستطع رفع عينيه عن حسناء إيطالية بلباس البحر المثير عند حمام سباحة نادى الرماية . فهل يعقل أن تكون نظراته إلى نرجس بريئة ؟! إن الحل الوحيد للخروج من هذا المأزق هو أن تنجب نرجس من البنين والبنات ما يسد عين الشمس حتى يصرف الطامعون فيها النظر عنها .

قام سيد تاركا الشرفة حيث وجد زوجته تتقلب فى فراشها وتحتضن الوسادة . جلس بجوارها وظل يداعبها ويقبلها إلى أن فتحت عينيها فقال متسائلا فى رقة :

ـــ ألا زلت يا روحى تتعاطين الحبوب ؟!

تقلبت فى أحضانه بدلال بالغ وسألته :

ـــ ما الساعة الآن ؟!

ـــ إنها السابعة والنصف .. لكنك لم تجيبى عن سؤالى ؟!

ضاعفت من دلالها مداعبة بأصابعها شفتيه السميكتين وشاربه الذى أنبته أخيرا :

ـــ ولماذا هذا السؤال بالذات فى مثل هذا الوقت المبكر ؟!

ـــ كنت فى الشرفة أفكر فى أحوالنا التى انقلبت من النقيض للنقيض .. واكتشفت أن الظروف التى حتمت علينا منع الحمل قد زالت .. ولا أخفى عليك فإننى أعبد براءة الأطفال !!

احتضنته نرجس قائلة فى عذوبة أسالت لعابه :

— لا تخف يا حبيبى .. فقد توقفت عن تناول الحبوب منذ الليلة الأولى التى وصلنا فيها إلى هذه الشقة السعيدة . فأنا لا أقل اشتياقا منك للأطفال !

أجلسها فى الفراش متسائلا :

— أنسيت أن اليوم افتتاح التوكيل فى الساعة السادسة مساء ؟! وقد دعانا المعلم المنجلاوى لتناول الغداء معه .. حتى نتلقى منه آخر التعليمات ؟!

— ألن يحضر الافتتاح معنا ؟!

— سألته نفس السؤال فذكرنى بأنه ليست له علاقة بهذا التوكيل .. وإنما هو باسمى واسم سنارة !

— غريب أمر المعلم المنجلاوى هذا !! لقد عجزت عن فهمه !!

— لم أعد أهتم بفهمه !! فإن ما جرى لى فى الأشهر الأخيرة علمنى أن تقبل ما تأتى به الأيام والرضا به خير من محاولة الجرى وراء فهمه ..

— لكن لا بد أن يعرف الإنسان وقع خطواته على الأقل .. حتى لا يجد نفسه فجأة فى هوة قد يصعب عليه الخروج منها !!

ضحك سيد جاذبا نرجس من فراشها :

— من لم يمت بالسيف مات بغيره .. تعددت الأسباب والموت واحد .. هيا إلى الإفطار حتى نذهب إلى التوكيل ونشرف على اللمسات الأخيرة قبل الافتتاح .

انطلقت نرجس إلى المطبخ ضاحكة :

— الإفطار سيكون جاهزا فى دقائق .. فأنت أدرى بزوجتك الذرية !!

عاد سيد إلى جلسته فى الشرفة مستمتعا بنسمة الخريف الرقيقة وهواء الصحراء الجاف ، ومتتبعا للسيارات المنطلقة إلى المطار والقادمة منه ، ورافعا عينيه صوب الطائرات الصاعدة والهابطة التى اعتاد دويها بعد أن كان ينهض من نومه مذعورا بسببه فى الأيام الأولى من مجيئهما إلى الشقة .

فى دقائق كانت نرجس تقف بالمائدة الصغيرة ذات العجلات الذهبية الأربع وفوقها أطباق الجبن والمربى والفطائر وفناجين اللبن والشاى . جلست نرجس فى مواجهته وانهال الاثنان فى صمت على الطعام حتى لاحظت ابتسامة على وجهه . قبل أن تفتح فمها بالسؤال أجابها :

— تذكرت إخوتى فى « دار الرماد » .. لا بد أنه سيغمى عليهم عندما يتأكدون من وضعنا الجديد ..

— وما الذى ذكرك بهم ؟! إن الماضى لم يعد فى اعتبارى .. فليس فيه ما يستحق الذكر .. كما أنه لن يتأتى لهم معرفة أى شىء عنا !!

— لا تنسى إن إعلانا على نصف صفحة سينشر اليوم عن الافتتاح .. فى الصحف الثلاث !!

— وهل تظن أن إخوتك سيظنون أن رجل الأعمال الناجح سيد الرمادى صاحب توكيلات السيارات هو أنت ؟! إنه سيكون فى نظرهم مجرد تشابه فى الأسماء ..

— وماذا عن أبيك ؟!

— نفس الشىء !

انتهى الإفطار وعادت نرجس بالمائدة العربة إلى المطبخ . وفى دقائق كان الاثنان فى المصعد ، نرجس متألقة فى ثوب أصفر خفيف ، وسيد فى

حلة بيضاء صيفية . عند باب الجراج أسرع السائس بإحضار السيارة الرمادية من الداخل . قادها سيد بثقة من تعلم القيادة منذ صباه فى حين أخرجت نرجس عطرها من حقيبتها فانتشرت نفحاته من تحت أذنيها وعنقها ومفرق صدرها . تعجب سيد : « متى تعلمت كل هذا ؟! » .

عند إشارة المرور بميدان رمسيس ابتاعت نرجس الصحف الثلاث التى نشرت إعلانا من نصف صفحة يقول :

« يتشرف رجل الأعمال والاقتصادى العصامى سيد الرمادى بدعوة رجال الأعمال والمهتمين بأحدث موديلات السيارات لافتتاح توكيله الجديد بشارع السراى الكبرى المتفرع من قصر النيل ، لمشاهدة أحدث ما وصلت إليه صناعة السيارات الفاخرة فى ألمانيا وأمريكا وفرنسا وإنجلترا واليابان وإيطاليا والسويد » .

ووسط هذه الكلمات تناثرت صور السيارات الفاخرة باللون الأحمر . وهى الصور التى لم يستطع سيد ونرجس رفع نظراتهما عنها إلا عندما أفاقا على أبواق السيارات خلفهما تعلن فتح إشارة المرور حتى يتحركا .

أمام التوكيل كان المكان محجوزا لسيارة سيد . هرع سنارة للترحيب بهما وخاصة بنرجس التى شد على يديها بحرارة ضايقته . كان لمعان المرايا بالداخل يخلب اللب قبل البصر . رصت العربات التى بدا عددها بين المرايا لا نهائيا ، فى حين انهمك عمال النظافة فى تلميع الأرضية الرخامية التى أوشكت قدم سيد أن تزل فوقها لولا نرجس التى أمسكت بيده فتمالك نفسه . صعد الثلاثة الدور العلوى حيث المكتب العلوى لإدارة أعمال التوكيل ، وحيث تكييف الهواء يسرى فى

الأجساد بإحساس الحلم الزاخر بالأضواء والمرايا والموسيقى الناعمة الصادحة .

ظل الثلاثة يصعدون ويهبطون ، يتحركون ويتجولون كأنهم فى حلم . لم يستطع سنارة رفع عينيه عن نرجس التى بدا جمالها الخمرى وعيناها الرماديتان ووجهها الغجرى وجسدها المشع بالدفء كالقصص الخرافية . لكن سيدا كان هائما حالما بحيث لم يشعر بوجود نرجس نفسها ، وخاصة عندما خرج إلى الرصيف ورأى اللافتة الضخمة ، التى أضيئت لتجربتها ، تحمل اسمه . لقد جاء للاطمئنان على آخر اللمسات فلم يفعل شيئا سوى الانبهار .

وعندما اقتربت الساعة من الثالثة ظهرا ، استقل سيد ونرجس عربتهما ، وفى المقعد الخلفى جلس سنارة . انطلقوا إلى الفندق الفاخر المطل على النيل ، وفى قاعة الطعام جلسوا فى انتظار المعلم المنجلاوى تلبية لدعوته لتناول الغداء . دهشت نرجس عندما سأل سيد سنارة :

ـــ لم تقل لى يا سنارة حتى الآن سر الصداقة بين المعلم حنفى والمعلم المنجلاوى ؟!

نظر إليه سنارة نظرات كلها دهاء :

ـــ المسألة ليس فيها سر .. فهى صداقة منذ أيام الصبا !

ـــ وهل لا يزال المعلم المنجلاوى يتردد على دكان الجزارة ؟!

ـــ فى الفترة الأخيرة كان مشغولا بالسفر واستيراد البضائع .. لكننى واثق أنه سينتهز أول فرصة ليعيد أيام الماضى ..

قال سنارة هذا ونهض مبتسما مرحبا . نظر سيد فى الاتجاه نفسه فوجد رجلا وسيما أنيقا يرتدى حلة رمادية فاتحة ، فى طريقه إليهم .

لم يتعرف عليه لأول وهلة لكنه مع اقترابه أدرك أنه المعلم المنجلاوى . شد سنارة على يده قائلا :

ـــ أهلا أشرف بك !!

ثم أفسح له المقعد الخالى بجواره . تضاعفت حيرة سيد الذى مد يده مذهولا فى حين ضحك المنجلاوى قائلا :

ـــ لا تتعجب .. فأنا المعلم المنجلاوى عندما أرتدى العباءة .. وأنا أيضا أشرف بك عندما أكون بالحلة ..

لاحظ سيد اللهجة الأرستقراطية المفاجئة التى كان يستخدمها . انحنى المنجلاوى محييا نرجس بأسلوب غاية فى الرقة والأرستقراطية ، فاحمر وجهها وهى تقف نصف وقفة احتراما له .

استقر الأربعة حول المائدة . كانت نرجس بين زوجها والمعلم المنجلاوى أو أشرف بك . جاء النادل محييا أشرف بك فأسر فى أذنه بأصناف الطعام المطلوبة دون أن يستشير ضيوفه . قال المنجلاوى لسيد :

ـــ أردت بهذا اللقاء أن أمنحك تعليماتى التى أرجو أن تنفذها بالحرف الواحد .. لأن أى خطأ سيصبح مصيبة لنا جميعا !!

اهتزت نرجس فى مكانها فى حين سقط قلب سيد فى قدميه لكنه قال بصوت صادر من أعماقه :

ـــ تحت أمرك يا معلم .... يا ..

ثم استدرك :

ـــ يا أشرف بك ..

استأنف المنجلاوى كلامه كقائد يصدر أوامره :

ــ هذه السيارات ليست للبيع لأى مشتر .. إنها عينات للعرض فقط حتى آتى بنفسى مع مشتريها ..

تساءل سيد فى حرج :

ــ وماذا ستكون وظيفتى بالضبط ؟!

ــ أنت صاحب التوكيل مع نرجس وسنارة !

ــ أقصد .. ما الذى سأفعله بالضبط ؟!

ــ كل ما ستفعله مداعبة الزبائن المترددين ومعرفة طلباتهم وتسجيلها وعرضها علىّ حتى أرى ما يمكن تلبيته منها !

تدخل سنارة فى الحوار بعد أن أحدث حشرجة خارجة من حلقه :

ــ نسيت أن أخبرك يا أشرف بك بأن سيد بك قد أصبح من أمهر الرماة الآن !

علق المنجلاوى تعليقا عابرا :

ــ هذه مرحلة تالية يا سنارة .. المهم أولا الانتهاء من عملية التوكيل .

ثم توجه إلى سيد :

ــ أما أنت فى الافتتاح اليوم .. فأرجو أن تكون على مستوى الموقف .. فسيأتى رئيس الحى لقص شريط الافتتاح .. كما سيصور التلفزيون والصحافة هذه المناسبة على سبيل الدعاية للتوكيل ..

لم يعرف سيد بماذا يرد ؟ تلعثم فأسعفته نرجس :

ــ سيد ــ طول عمره ــ يا أشرف بك على مستوى أى موقف !

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه المنجلاوى احتوى بها وجه نرجس وجسدها ثم قال بصوت كدقات الصداع فى رأس سيد :

ــ ستكونين وردة المحل وزهرته المتفتحة .. كان هذا رأيى الذى قلته للمعلم حنفى منذ أن رأيتك لأول مرة فى دكان الجزارة !!

احمر الوجه الخمرى وندمت صاحبته على تدخلها فى الحديث . فقد رأت على ملامح سيد مشاعر متشابكة معقدة غير مريحة . تساءل سيد فى حرج بالغ :

ــ منذ متى بدأت صداقتك يا أشرف بك بالمعلم حنفى ؟!

ندم سيد على تورطه فى هذا السؤال لأن المنجلاوى نظر إليه دون أن يفتح فمه بكلمة . ثم استراح سيد لقدوم النادل حاملا أطباق اللحوم المتعددة والمكرونة والحساء والسلاطة وزجاجات البيرة المثلجة على مائدة متنقلة فوق عجلات وبدأ فى نقل حمولته إلى مائدتهم . نظر المنجلاوى إلى ساعته الذهبية ثم إلى الخاتم الماسى الضخم فى نفس اليد وسأل سيدا على غرة :

ــ ولماذا هذا السؤال بالذات ؟!

أسقط فى يد سيد فقد تصور أنه نسى السؤال . تظاهر بالتساؤل :

ــ أى سؤال يا أشرف بك ؟!

ــ عن بداية صداقتى بالمعلم حنفى ؟!

ــ كان سؤالا عابرا بمناسبة ذكر دكان الجزارة !

ــ لكننى لن أجيب إجابة عابرة !!

كان النادل قد انتهى من رص الأطباق والأكواب وغادر المكان . لكن أحدا لم يجرؤ على أن يمد يده إلى المائدة والمعلم المنجلاوى يتكلم :

ــ كنت مارا ذات يوم بعربتى فى طريقى إلى المعادى ومعى سنارة .. كنا فى حاجة إلى لحم لضيوف قادمين فى ذلك المساء .. رأينا اللحوم

الطازجة فى الدكان معروضة بطريقة يسيل لها اللعاب .. توقفنا ونزلنا ورأيت لأول مرة ست الحسن والجمال .

كان قلب سيد يغوص فى قدميه مع كل كلمة ينطقها المنجلاوى الذى استمر فى حكايته التى تذكر تفاصيلها بتلذذ واضح :

ـــ كيف لهذا الجمال أن يعيش وسط هذا البؤس ؟! ألح علىّ هذا السؤال . وبدأت كعادتى فى التفكير والتخطيط .. عرفت أن المعلم حنفى من أصحاب المزاج والكيف .. دعوته لسهراتنا التى رحب بها لدرجة أنه كان يصر على رفض ثمن اللحوم التى كان يرسلها إلىّ ..

أمسك سيد الشوكة الفضية أمامه وظل يدق بها على المائدة فى عصبية لكن المنجلاوى استمر فى حكايته دون أن يعبأ بالعرق الذى تبلور على جبهة نرجس برغم القاعة الفاخرة المكيفة الهواء :

ـــ وعندما توطدت الصداقة بينى وبين المعلم حنفى عرضت عليه أن تعمل نرجس فى إحدى شركاتى فرفض .. عرضت عليه أن أتزوجها فرفض ..

اهتزت نرجس فى مقعدها فى حين هبطت غشاوة على عينى سيد وأذنيه . استأنف المنجلاوى :

ـــ لكننى لم أتعود الفشل فى الحصول على شىء رغبته . كانت نرجس فى نظرى خير واجهة جميلة براقة لمشروعاتنا بحيث تبعد عنها أية شبهة . وعندما تزوجت لم أحزن .. فقد وجدت فى زوجها خير مستشار قانونى خاص لى فى الموضوعات التى لا أستطيع أن أستشير فيها أحدا خارج نطاق عملنا ..

ثم ركز عينيه على سيد :

ـــ وكنت أرى يا سيد بنفسي الذل الذى تلقاه على يدى المعلم حنفى .. وأنت الجامعى المثقف .. فأدركت أن مكانك بيننا فى الأعمال الكبيرة .. لا أن تحمل عجلا وتعلقه على الخطاف بين سخرية المعلم حنفى وتلميحاته وغمزه ولمزه !!

أرادت نرجس أن تستعيد زمام المبادرة حتى تسعف زوجها الذى بدا عليه الشرود والضيق والحرج فقالت للمنجلاوى :

ـــ أنا وسيد ضمن إخوتك الصغار يا أشرف بك !!

ربت على ظهرها معلقا مع ارتعاشة سيد :

ـــ وأكثر من مجرد إخوة !

ثم قال للجميع :

ـــ لماذا لا تأكلون ؟! إن أمامكم عملا شاقا فى انتظاركم .

وقال لسيد ضاحكا :

ـــ لا أريد أن يقول الزبائن إن صاحب التوكيل مصاب بالأنيميا !!

بدأ المنجلاوى فى تناول اللحوم والبيرة فى شراهة تبعه فيها سنارة . لكن سيدا كان قد فقد شهيته تماما برغم فراغ معدته ، أما نرجس فقد تظاهرت بالاستمتاع بالطعام مما دفع بسيد إلى تقليدها حتى يبدو كل شيء طبيعيا للغاية .

ساد الصمت فلم تسمع سوى أصوات الملاعق والسكاكين مع إيقاعات المضغ الخفيف وارتشاف البيرة المثلجة . قطع المنجلاوى الصمت :

ـــ ألا زلت يا سنارة مصرا على عدم العودة إلى نادى الرماية ؟!!

ـــ سيادتك تعلم السبب جيدا ؟!

ــ كيف لبطل فى الرماية مثلك ؟! ولاثنين من أمهر الرماة مثلى ومثل سيد ؟! أن يظلوا بعيدا عن نادى مثل هذا ؟!

ــ على كل حال يا أشرف بك .. فإن مسئولياتك لا تسمح بأى وقت فراغ يمكن أن تتردد فيه على النادى ..

انتهزت نرجس الفرصة كى تعيد لسيد لياقته النفسية :

ــ كان سيد قد اقترح على سنارة الاشتراك فى مهرجان صيد البط فى بحيرة قارون فى ديسمبر أو يناير القادمين !

انتهى المنجلاوى من طعامه . أخرج من جيبه سيجارا أشعله ونفث دخانه النفاذ قائلا لنرجس :

ــ فكرة لا بأس بها .. برغم أن ديسمبر ويناير من أكثر الشهور ازدحاما بالعمل عندنا .. لكن اقتناص يومين أو ثلاثة لن يؤثر ..

عاد الحلم القديم يراود سيدا . إنه لن يشعر باقتحام عالم السادة إلا إذا اصطاد البط عند البحيرة . قال دون تفكير :

ــ كنت أسمع فى طفولتى أن صيد البط متعة لا تعادله متعة ..

سأله المنجلاوى :

ــ ألم تجربه ؟!

ــ لم أتعلم الرماية سوى على يدى سنارة !

ضغط المنجلاوى على مخارج ألفاظه :

ــ قبل أن تمارس صيد البط .. أريدك أن تجيد اصطياد الزبائن !

ــ لا تؤاخذنى .. إننى لم أفهم قصدك !

ــ ستعرف كل شىء فى حينه ..

جاء النادل وجمع الأطباق والأكواب ، ثم وضع مكانها فناجين

القهوة وأطباق الشطائر والحلوى . كانت شهية سيد قد فتحت قليلا فتناول القهوة ومعها قطعة حلوى فى حين كانت نرجس تبتسم له من حين لآخر .

نظر المنجلاوى إلى ساعته ثم نهض واقفا ، فنهض معه الجميع . مرت بجوارهم سائحة شقراء ترتدى فستانا أبيض يكاد يكشف عن جسدها المشع تحته . تابعها سنارة بنظراته الجائعة لكن المنجلاوى لكزه بكوعه قائلا :

ـــ ألم تتعظ بعد ؟! إن جمال المصرية لا يعلى عليه .. مهما تعرت الأجنبيات ؟!

ثم نظر إلى نرجس التى أشاحت بوجهها بعيدا عنه صوب سيد . قال المنجلاوى للجميع :

ـــ هيا إلى العمل .. وأتمنى لكم التوفيق !

خرج المنجلاوى بعد أن نادى على النادل ومنحه حفنة أوراق مالية أخذها منحنيا شاكرا . ركب عربته الفارهة فى حين عاد سيد إلى عربته ومعه نرجس إلى جواره وسنارة خلفه .

وأمام معرض السيارات رش الرمل فوق الرصيف ، ورصت باقات الزهور والورود من المهنئين أمام الأبواب ، فى حين كانت اللافتة الضخمة تضيء وتنطفئ بألوان مبهرة : « معرض سيارات سيد الرمادى وشركاه » .

١١

أحست نرجس بسيد يتقلب بجوارها فى الفراش . احتضنته فأيقنت أنه مستيقظ برغم ظلام الغرفة . سألته :

ــ ألم تنم يا حبيبى حتى الآن ؟!

ــ حاولت لكن النوم جفا عينى !

ــ إن الليل قد أوشك على أن ينقضى .. ثم إن اليوم بطوله كان مجهدا .. فلم تسترح لحظة واحدة !!

احتضنها بشدة كغريق يتعلق بطوق نجاة فى بحر الظلمات :

ــ إننى فى حيرة من أمرى .. حتى أكاد لا أعرف من أنا ؟! وماذا أفعل ؟! ولماذا ؟!

ــ ها قد عدت إلى التساؤلات غير المجدية مرة أخرى ؟! ألم تقل لى إنك تعلمت أن تقبل ما تأتى به الأيام والرضا به فهو خير من محاولة الجرى وراء فهمه ؟!

انتفض سيد بين أحضانها متسائلا :

ــ ماذا تقصدين ؟! هل أعجبك ما قاله المنجلاوى اليوم على مائدة الغداء ؟!

ــ هل بدأت الغيرة تدب فى داخلك يا حبيبى ؟! كنت أظن أن ثقتك فىّ لا حدود لها ؟

ربت على وجنتها فى الظلام :

— لم أقصد هذا .. فأنا حياتى بدونك عدم فى عدم ..

— ألم نتفق من قبل أننا معا يمكن أن نفعل المعجزات ؟!

— ما يحيرنى أننى عندما كنت فقيرا كنت أعرف ما أفعله تماما ، وعندما هبط علىّ الثراء لم أعد أعرف شيئا .. فى حين كنت أظن أننى سأصبح سيد موقفى ..

— إن حيرتك نابعة من تبعيتك للمنجلاوى .. لكن عندما نستقل بعد ذلك بثروتنا ستشعر بالسيادة المطلقة .. وستصبح اسما على مسمى ..

قبلته فى شفتيه لكنه قال فى حيرة متسائلة :

— وهل تظنين أننا سنستقل ذات يوم عن المنجلاوى بكل سطوته وجبروته ؟! وأنه ستكون لنا ثروة خاصة بنا ؟!

— إننى أحب كل شىء فيك يا سيد .. ما عدا إحساسك بأن المنجلاوى جبار لا يقهر .. ألم يقل لك سنارة من قبل إنه يفكر فى تركه فى أول فرصة ؟!

— لا تصدق هذا الثعبان ! إنه يقول أشياء ويفعل نقيضها تماما ! ثم إننى أشعر أن ارتباطه بالمنجلاوى له أبعاد غامضة ومتعددة لا أستطيع استيعابها !.

— إنه لا يهمنا على الإطلاق .. لكن ما أريد قوله إنه إذا كان المنجلاوى يعرضنا للخطر من أجل مصلحته .. فلا بد أن تستغل هذا فى تكوين ثروة تمكننا من الاستقلال عنه فى اللحظة المناسبة ..

— إنه لن يرحمنا إذا فعلنا ذلك وخاصة بعد أن انتشلنا من هاوية الفقر !

ـــ لا تنس أن عنده ثغرة ضعف لا بد أن يعمل لها ألف حساب .

ـــ إنه يبدو كالجبل الأصم !!

ـــ لا تنخدع بالمظاهر .. فهو يتحرك بعيدا عن أعين القانون .. وأى إنسان يمكنه جذب هذه الأعين إليه .. فينتهى فى لحظة !

ـــ لكنه يعتمد على أن يورط معه كل من يعرف عنه أى شىء ؟!

ـــ والشاطر من يعرف كيف يخرج من براثنه كالشعرة من العجين فى الوقت المناسب !

أحس بأنفاسها الساخنة تلفح وجهه فاستكان لها :

ـــ إنك لا تعترفين فعلا بالمستحيل ؟!

ـــ كانت حياتنا فى الفترة الماضية هى المستحيل بعينه .. وعلينا أن نواصل العيش فى هذا المجتمع المستحيل .. فليس لنا مكان غيره !!

ضغط بذراعيه حتى كاد أن يعتصرها :

ـــ آه .. لقد رأيت الليلة هذا المجتمع على حقيقته . كانت البطاقات المرفقة بباقات الزهور تحمل أسماء لم أسمع عنها من قبل . هذا المليونير العصامى فلان .. وذاك رجل الأعمال علان .. وكلهم يمدحون عبقرية سيد الرمادى ومساهمته فى بناء صرح الاقتصاد القومى . كذلك سمعت أحدهم بعد قص الشريط وتوزيع الحلوى والمشروبات يقول لجاره إنه يعرفنى منذ أيام الصبا .. فأبى هو محمد الرمادى باشا رجل الخير والبر فى مجال رعاية الفقراء وبناء الملاجئ والمستشفيات !! يبدو أنه يعرف الوالد خير منى !!

ضحكت نرجس ضحكة عذبة مغرية وتقلبت فى أحضان سيد :

ـــ أما أنا فقد راهن أحد السادة الضيوف على أن أمى أسبانية على أقل

تقدير .. وقال إن عيونى الرمادية لا بد أن أصولها تعود إلى جبال أسبانيا !!

قال سيد ببعض السخرية :

ــ يبدو أنك كنت مستمتعة بمثل هذا الكلام ؟!

أجابت مداعبة إياه فى دلال :

ــ وأنت .. ألم تضغط النجمة السينمائية الفاتنة على يدك وهى تصافحك أمام عدسات المصورين ؟!

ــ إن لك قوة ملاحظة أخطر من الرادار !!

ــ إن الثقة التى بيننا فوق أية غيرة !

ــ لكن الشىء المحير حقا : لماذا أصر المنجلاوى أو أشرف بك على عدم حضور الافتتاح .. كما أصر من قبل على عدم تسجيل المعرض باسمه برغم ضخامة المبلغ المدفوع فيه ..

ــ لا تقلق .. سنعرف كل شىء فى حينه !

طغى ضجيج طائرة هابطة أو صاعدة من المطار ، هزت نوافذ الشقة الزجاجية . انتظر سيد حتى خفت الضجيج :

ــ إن هذه هى الجملة المفضلة عند المنجلاوى !! وكذلك عند سنارة !!

ــ لكننا سنستخدمها بطريقتنا نحن !

ــ أرجو أن يحين هذا الحين بأسرع ما يمكن ! فأنا أشعر أن هناك خطرا يكمن فى معرض السيارات .. فالمرتبات الضخمة التى يمنحها لنا المنجلاوى لا يمكن أن تكون لوجه الله ..

ــ إذا وقع أى مكروه .. فسنطبق مبدأ « علىّ وعلى أعدائى » . لكن

أرجو ألا تصل الأمور إلى هذا الحد !

ضحك سيد ضحكة مريرة خافتة :

ـــ فى أيام الفقر كنت مطاردا بأشباح البطالة والجوع .. وفى أيام الثراء أصبحت أخاف المستقبل نفسه !!

قالت وهى تضغط على مخارج ألفاظها :

ـــ أنت تعلم جيدا يا حبيبى أنه لا يوجد شىء فى هذه الدنيا بلا مقابل .. وعلى الإنسان أن يدفع ضريبة أى شىء يحصل عليه :

ـــ ويبدو أن الضريبة تتصاعد كلما زادت قيمة الشىء ؟!

ـــ شىء طبيعى .. لكن الإرادة المتفائلة من شأنها صنع المعجزات .. وستعرف هذا فى حينه على حد قول المنجلاوى وسنارة .. فسنجمع ثروة ضخمة ونقيم بها مشروعاتنا الخاصة .. كما يفعل كل الناس فى هذه الأيام .. وسيصبح المنجلاوى وأيامه مجرد ذكريات نتندر بها ..

ـــ أرجو ألا نصبح نحن ذكريات المنجلاوى التى يتندر بها فى جلسات الأنس والفرفشة .. أرأيت كيف كان يغازلك بصراحة على مائدة الغداء اليوم دون أى مراعاة لشعورى ؟! إنه يتصرف كما لو كان الكل عبيدا تحت رحمته !!

ـــ دعه يتكلم كما يشاء ! المهم النتيجة العملية ! إننا لن نسمح له بإبعاد أعيننا عن هدفنا الذى من أجله تعاملنا معه !

تخلص سيد من أحضان نرجس برقة :

ـــ كنا فى بادئ الأمر نحاول الانتماء إلى أى إنسان .. لكن محاولتنا باءت بالفشل .. رفضتنى أسرتى بل لفظتنى .. ثم طردنا أبوك .. والآن نحاول الاستقلال عن المنجلاوى .. أرجو أن يلفظنا الفشل هذه المرة !!

كان نور الفجر الخافت الوديع قد بدأ فى التسلل من خصاص النافذة فبدأت معالم الغرفة تتضح . كانت نرجس فى قميصها الأبيض الشفاف القصير شبه عارية فى حين كان سيد ملتحفا بملاءة بيضاء بحيث لم يبد منه سوى رأسه وياقة البيجاما الحمراء ، وكأنه يتحاشى نسمات الخريف المبكرة المحملة بندى الصحراء عبر النافذة ذات الزجاج المفتوح . عادت نرجس إلى احتضانه بملاءته فلم يمتلك سوى أن يحتويها تحتها بحيث أصبحا جسدا واحدا . همست نرجس :

— إننى خائفة عليك من الحسد !

— أنت تعرفين البئر وغطاءه !

— أمس فى المعرض سمعت شابا يقول لصديقه متسائلا متعجبا : كيف لشاب مثلك لم يتعد الخامسة والعشرين من عمره أن يملك هذه الثروة ؟! وخاصة أن ما خفى كان أعظم !!

— لا تنسى أننى ابن محمد باشا الرمادى رجل البر والخير والإحسان !

ضحك الاثنان من قلبيهما ضحكة تقطر صفاء لأول مرة منذ زمن بعيد ذكرهما بلحظات بئر السلم فى مصر القديمة ، تلك اللحظات التى طرأت على بالهما دون أن يبوح بها أحدهما للآخر . لكن سيدا سرعان ما استدرك :

— وماذا كان رد الشاب الآخر على صديقه ؟!

— قال إن الثروات تجمع هذه الأيام بطرق مختلفة عما كانت تجمع به فى الماضى !!

تراخت أحضان سيد فندمت نرجس على قولتها . لكنها سرعان ما احتضنته بعنف وهى تمطر وجهه بالقبلات . سرت سخونة دمائها فى

أطرافه الباردة فلفظ الملاءة والبيجاما واستغرق معهـا فى اللحظـات الوحيدة التى يغيب فيها شبح المنجلاوى عنه .

١٢

كانت الشمس تتوارى خلف التلال الذهبية المترامية عند خط الأفق خلف صحراء شاسعة ناعمة ، عندما انطلق المنجلاوى فى عربة الجيب التى كان يقودها سنارة بدراية من يعرف دروب الصحراء وكهوفها . وبالفعل أصبح المنجلاوى مطمئنا إلى خبرته وخاصة فى صحراء أبى صير التى تتم فيها معظم الصفقات التى تعد لإدخالها إلى القاهرة والصعيد . وقد سارت فى أعقاب عربتهما عربة جيب أخرى يقودها ثلاثة شبان يرتدون حللا تتفق فى لونها إلى حد كبير مع لون حلتى المنجلاوى وسنارة ، أى لون الرمال وخاصة عند ساعة الغروب .

تحسس المنجلاوى مسدسه تحت جاكتته القصيرة قائلا :

ــ هل تأكدت من صلاحية البنادق والرشاش فى السيارة الأخرى ؟

أجاب سنارة بثقة مثيرة :

ــ كله تمام يا معلم !!

توغلت العربة فى الصحراء بحيث اختفى الطريق الممهد تماما وأصبحت الصفرة الداكنة تحيط بكل الأشياء مع الصمت المطبق باستثناء حفيف الفراغ المطلق وهدير محرك السيارتين . كان نبات الصبار ينمو فى إصرار وتحد لكل عناصر الفناء المحيطة به ، مستمتعا برطوبة نسمات أكتوبر التى جعلت الرمال تبدو ثقيلة راسخة بلا خوف

من الزوابع الرملية .

قطع المنجلاوى حبل الصمت :

ــ كيف حال تلميذك المستجد ؟!

ــ إنه لم يكتسب اللياقة المطلوبة بعد !.

ــ ألم تقل إنه أصبح ماهرا فى الرماية ؟!

ــ لم أقصد هذا !! وإنما قصدت اللياقة النفسية .. إنه مهزوز متردد خائف قلق دائما .. وهذه كلها عناصر ضد مهنتنا ..

ــ مصيره يتعلم .. أتذكر يوم خرجت من السجن وجئتنى والدنيا سوداء ومسدودة فى وجهك ؟! لقد تغيرت كثيرا يا سنارة !!

ــ لكننى لم أكن متزوجا حتى أخاف على زوجتى ؟!

نظر المنجلاوى نظرات لها معنى إلى سنارة ، ثم قال :

ــ أنت تعلم جيدا أن اختيارى لسيد .. كان نتيجة لاختيارى نرجس أولا ! ولكل واحد دوره فى اللعبة !!

ــ قلت له على سبيل جس النبض إننى أترقب اليوم الذى أترك فيه هذه المهنة الخطرة .. فكان سكوته علامة الرضا !

ارتسمت نظرات مخيفة على ملامح المنجلاوى رآها سنارة برغم سمرة المغيب الهابط . تساءل فى صمت عميق :

ــ هل كنت تقصد ما تقول يا سنارة ؟!

قال سنارة ناظرا أمامه إلى طريق الرمال الذى يشقه :

ــ لأول مرة تشك فىّ يا معلم ؟!

ــ إننى أشك فى أبى .. فلولا الشك لانتهيت من زمن بعيد !

ــ أنت تعلم يا معلم أننى لا يمكن أن أتركك لأن أحدا لن يقبلنى

للعمل عنده .. أما سيد ونرجس فالمستقبل مفتوح أمامهما !!

— هل تشعر بالغيرة من سيد ؟!

وقع السؤال كالصاعقة على رأس سنارة فتساءل مستدركا فى حرج :

— ولماذا هذا السؤال يا معلم ؟

— لم تجب على سؤالى ؟!

— بالطبع لا ..

— أنت كاذب !! فأنت غارق حتى أذنيك فى حب نرجس .. وتحلم باليوم الذى تفوز فيه بها !!

ارتبكت عجلة القيادة بين يدى سنارة عندما سار بمحاذاة أحد التلال المتدرجة . فقال المنجلاوى :

— انتبه جيدا فقد دخلنا المنطقة الوعرة !

— اسمح لى يا معلم أن أقول لك إنك مخطئ .. فنرجس ليس لها أى وجود فى حياتى !!

أشار المنجلاوى إلى ذراعه وهو يقول :

— اقطع ذراعى هذ إذا كنت مخطئا .. فأنت الذى دخلت السجن سبع سنوات من أجل نظرة ألقيتها على سائحة إيطالية .. على استعداد أن تضحى بعمرك كله من أجل الفوز بنرجس ..

— إن فكرتك عنى يا معلم سيئة للغاية !

— إننى أفهم الناس من نظراتهم .. كنت تلتهمها بعينيك منذ أيام دكان الجزارة !!

قال سنارة محاولا إنهاء الموضوع الحرج :

— إن البنات على القلب أكثر من الهم .. لم تضق الدنيا فى وجهى

حتى لم أعد أرى سوى نرجس .

— القلب وما يعشق يا أبا السنانير !!

لاذ سنارة بالصمت بعد أن شعر بعدم جدوى الجدل . لكنه فى اللحظات التى هبط فيها الصمت مع الظلام أيقن سنارة حقيقة هيامه بنرجس . إنه يود القرب منها على أى وجه . لو طلبت منه أن يركع بين قدميها فسيركع قبل أن تطلب . إنه لم يجرب الحب من قبل فى حياته . كان نهمه للجنس الآخر قد تمثل فى علاقات صاخبة لكن عابرة . أما نرجس فتنهض كاللغز أمامه ! لا يعرف لماذا تعلق بها كل هذا التعلق برغم أنها لم تبد أى اهتمام شخصى تجاهه ؟ كل ما يعرفه أنه كلما نظر إلى عينيها الرماديتين أحس بدوار أمتع ألف مرة من ذلك الذى ينتابه فى سهرات المعلم المنجلاوى ..

— فيم شردت ؟! وتقول لى إنها غير موجودة فى حياتك ؟!!

تمالك سنارة نفسه عندما مر السؤال بجوار أذنه كطلقة المدفع الرشاش . ضغط على مخارج ألفاظه :

— لن أنظر إليها مرة أخرى .. ولن أتكلم معها حتى أثبت لك صدقى !

أشاح المنجلاوى بوجهه بعيدا ناظرا إلى الظلام خارج العربة :

— ما فى القلب فى القلب !

بدت بعيدا بعض مصابيح الغاز كبقع بيضاء لامعة وسط سواد شامل . نظر المنجلاوى خلفه فوجد السيارة الأخرى فى أثره . نظر يمنة ويسرة وطلب من سنارة أن يمسح المنطقة بنظره الحاد ففعل ثم قال :

— اطمئن يا معلم .. فالمنطقة جاهزة للعملية !!

أوقف سنارة العربة وأطفا الأضواء الكاشفة ، وتبعه السائق الآخر خلفه . أضاءت سيارة مواجهة لهم مصابيحها الكاشفة وأطفأتها ثلاث مرات . فتأكد المنجلاوى أنه ليس كمينا . أدار سنارة المحرك وانطلق صوب مصابيح الغاز وفى أعقابه السيارة الأخرى حتى اقتربوا منها فظهر فى ضوئها كهف ضخم داخله مصابيح أخرى وعلب من الصفيح والبلاستيك الضخمة جلس عليها رجال ملثمون يرتدون العباءات السوداء . فى الحال وقف أحدهم فكاد أن يسد مدخل الكهف . هبط المنجلاوى ومعه سنارة والرجال الثلاثة الآخرون من السيارة الثانية . شد على يد الرجل الملثم :

ــ مساء الخير يا أمير !!

ــ فى ميعادك تماما يا ملك !!

أخرج المنجلاوى من جيبه حافظتين ضخمتين من جلد الثعبان ، يكاد الانتفاخ أن يمزقهما . أخذهما الرجل الملثم ووضعهما داخل عباءته الفضفاضة السوداء . لكن المنجلاوى قال :

ــ لا بد أن تعد يا أمير !!

رد الملثم بنفس الصوت الجهورى الأجش :

ــ إننى لا أعد وراء الملك !

ثم نظر إلى رجاله الواقفين خلفه بمدافعهم الرشاشة تحت العباءات الفضفاضة وأصدر أمره :

ــ العلب الصفيح فى السيارة الأولى .. والبلاستيك فى الثانية !!

حمل ثلاثة منهم ثلاث علب صفيح ثم رفعوا غطاء المقعد الخلفى حيث استقرت العلب فى باطنه بنفس السعة وأعادوا الغطاء عليها . وفى السيارة

الثانية فعل ثلاثة آخرون نفس الشيء بالعلب البلاستيك .

سأل المنجلاوى العملاق الملثم :

— والمرة القادمة .. متى ؟!

— فى أول ديسمبر يا ملك !!

— مطلوب مضاعفة الكمية لزوم الأعياد يا أمير !

— أمرك مجاب يا ملك ..

— سلام ..

— سلام ..

استدار المنجلاوى فدخل الملثم مع رجاله الكهف مرة أخرى ، وأعينهم تومض بشرر أقوى وأسطع من المصابيح الغازية . أصدر المنجلاوى أوامره لرجال السيارة الثانية :

— سويلم لباب النصر ! زنفل للجمالية ! حمامة للباطنية !

نفذ الرجال الأوامر فى لمح البصر . ركبوا السيارة ولم يتحركوا إلا بعد أن انطلقت عربة المعلم يقودها سنارة الذى داعبه المنجلاوى :

— أروع ما فيك يا سنارة أنك تجيد القيادة هنا كالقطط التى ترى فى الظلام .. حتى لو أطفأنا المصابيح فستعرف طريقك جيدا حتى الطريق الأسفلت ..

لم يرد سنارة خوفا من أن يكون الحديث لاستدراجه مرة أخرى . كان فى ظلام الصحراء يشعر بتفوق على المنجلاوى . إنه يمكنه القيادة بطريقة جنونية بحيث يقذف بالمنجلاوى خارج العربة ويتركه فى ليل الصحراء الدامس تحت رحمة الذئاب وأبناء آوى ، وفى النهار تحت رحمة الصقور بعد أن يكون المسير قد أنهكه . كان هذا الخاطر يريحه كلما شعر

باشتداد سطوة المنجلاوى عليه . انطلق ذئب أمام مصابيح العربة الكاشفة فدهمته وسط عواء وعويل صارخ لكن شنارة لم يهتز واستمر فى طريقه المظلم . كسر المنجلاوى حاجز السكون :

ـــ يبدو أننى حسدتك على بصرك الحاد ؟!

ـــ وضعه حظه السيىء أمامى .. فماذا كان يمكن أن أفعل ؟!

ـــ إننى أداعبك مثلما داعبتك من قبل حول نرجس .. لا تصدق ما قلته لك بشأنها .. إنك شاب وسيم وثرى مثل نجوم السينما .. وأية فتاة تتمناك لنفسها .. أما ابنة المعلم حنفى .. فستعيش وتموت وهى ابنة المعلم حنفى !!

انطلقت الثقة المطلقة بالنفس مع ألفاظه الرنانة :

ـــ لا تستهن يا معلم بنرجس .. صحيح أنها صغيرة فى السن لكنها خطيرة جبارة !!

ـــ وكيف عرفت خطرها ؟!

ـــ من سلوكها مع الجميع .. إنها تعرف ما تريده تماما وتعرف أيضا كيف تحصل عليه ؟! فإذا لم يكن فى التو واللحظة فإنها قادرة على الصبر والترقب حتى يحين الحين ! إنها يمكن أن تلعب بنا جميعا .. فى الوقت الذى تظننى أنت فيه قادراً على اللعب بمشاعرها وقلبها !!

ـــ أنت فى منتهى الذكاء يا سنارة .. إن مهنتنا فعلا فى حاجة إلى امرأة فى جبروتها .. تخيل ماذا يمكن أن تكون عندما تبلغ الثلاثين أو الأربعين ؟! سيضرب بها المثل .. أدركت هذا منذ أيام دكان الجزارة عندما كانت تتردد عليه للحظات ثم تعود أدراجها !

ـــ وهل سيقتصر دورها على التواجد فى معرض السيارات ؟!

— إنك تسأل هذه الليلة أسئلة كثيرة !! ماذا يدور فى رأسك بالضبط ؟!

— لا شيء .. إننى أردت فقط أن أطرد ملل الطريق ووحشته !!

ساد الصمت برغم هدير المحرك وحفيف الفراغ وسط طبقات الظلام المتكاثف فى حين أضاءت صورة نرجس وجدان سنارة بحيث لم يشعر بالملل فى انتظار أضواء القاهرة .

١٣

جلس سيد مع نرجس فى المكتب العلوى بمعرض السيارات . كان يرد فى التليفون على استفسارات عميل يرغب فى شراء سيارة ، فى حين كانت نرجس تتصفح صحف الصباح وفجأة ومضت عيناها الرماديتان ببريق مركز على إحدى الصفحات ، حملقت ثم قرأت ثم أعادت القراءة ثم نظرت إلى سيد الذى كان لا يزال منهمكا فى مكالمته التليفونية . أشارت إليه بيديها ما معناه أن ينهى المكالمة بأسرع ما يمكن لكن تركيزه فى المكالمة كان أشد . أعادت القراءة أكثر من مرة إلى أن انتهى سيد من مكالمته فدفعت إليه بالجريدة وهى تضع إصبعها على جزء معين قرأه سيد وعيناه تحملقان وتتسعان . أعاد القراءة مرتين وثلاثا ونرجس لم ترفع عينيها من على وجهه . ألقى بالجريدة على المكتب وقال :

— فعلا يا نرجس .. نحن آخر من يعلم !! فالحكم يصدر على المعلم المنجلاوى بالسجن ستة أشهر ويستأنف الحكم ونحن لا نعلم ذلك إلا من الصحف !

ـــ ومن قال لك إننا نعلم أى شيء عنه ؟! إنه رجل غامض مريب ولا يمكن أن نعرف خباياه أو نتوغل فى دهاليزه !!

ـــ لم أعلم أن له شركة لاستيراد المنتجات الغذائية ؟! ولولا استيراده للجبن الفاسد وافتضاح أمره حتى بلغ القضاء لما علمنا عنه شيئا !! صحيح .. ما خفى كان أعظم !!

ـــ المهم .. هل سيأتى اليوم مع الزبائن الذين قال عنهم إنهم سيشترون أربع سيارات دفعة واحدة ؟! أم أن هذا الحكم سيهز كيانه ويغير خط سيره ؟

ـــ لم أعد أدرى شيئا .. لقد اتصل بى أمس فى المعرض بخصوصهم .. ولا بد أنه كان يعلم كل شيء عن الحكم الصادر ضده !!

ـــ على كل حال سنرى !

اشتاقت نرجس لرؤية المعلم المنجلاوى بعد صدور الحكم عليه لترى ماذا حل به ؟ توقفت سيارتان فاخرتان أمام المعرض فهبط سيد مسرعا طالبا من نرجس أن تظل فى المكتب لكنها سرعان ما كانت فى أعقابه مدفوعة بحب الاستطلاع .

دخل المنجلاوى مرتديا حلة بنية اللون أنيقة يفوح منه عطر أخاذ ، ومعه رجلان فى نفس أناقته ، وسيدة فاتنة أنيقة مثيرة ، بيضاء البشرة ذات النمش ، ذهبية الشعر ، عسلية العينين ، ترتدى فستانا فى لون النبيذ المعتق ، يكشف الكثير عن مفرق صدرها وظهرها وساقها اليسرى من خلال فتحات مقصودة . لأول وهلة ظنتها نرجس سائحة أجنبية لكن بمجرد أن اقتربت منها اكتشفت أنها الراقصة الشهيرة نسمة الصباح .

لم يعر المنجلاوى سيدا ونرجس التفاتا . كان منهمكا فى استعراض

السيارات مع ضيوفه ولم يبد عليه أى ضيق على عكس ما توقعت نرجس ، فى حين كانت الراقصة تتشدق بلبانة وسط زينتها الصارخة وهى تنظر إلى كل الجدران المغطاة بالمرايا العاكسة معجبة بمنظرها من كل الاتجاهات والزوايا . انهمكت نرجس فى متابعتها ، تبادلتا النظرات بدون كلمات فى حين تابع سيد الزبائن فوجد عجبا . كانوا يدقون بأصابعهم على أماكن معينة فوق الإطارات مثلما يفعل الطبيب فى الكشف الباطنى فى حين قال المنجلاوى :

ــ هذه السيارات جاءت خصيصا من أجل معرضنا .. إنها تساوى وزنها ذهبا .. ولن تجدوا مثلها فى أى معرض آخر !!

أطلق الرجل ذو الشارب الغليظ نفسا عميقا رماديا من سيجاره ثم ضحك وقال للمنجلاوى :

ــ إنها سيارات لا يركبها إلا أصحاب المزاج !!

علق المنجلاوى ضاحكا فى بهجة :

ــ والمزاج العالى بصفة خاصة !

قال الرجل الآخر ذو الحلة البيضاء والخاتم الماسى :

ــ نحن لا نرضى إلا بالمزاج العالى !

ثم جذب نسمة من يدها بحيث أوقفها فى نصف الدائرة حول السيارة الفاخرة سائلا إياها :

ــ ما رأيك يا ست الكل فى هذه السيارة ؟!

أجابت وإيقاعات التشدق باللبانة آخذة فى الارتفاع :

ــ لقد أهدانى أمير عربى أختها فى الشهر الماضى !

علق الرجل ذو السيجار الغليظ الفاخر :

ــ لم أرك تركبينها ؟!

ــ لقد بعتها فى اليوم التالى مباشرة !!

تدخل المنجلاوى :

ــ كان معرضنا أولى بها من أى معرض آخر !!

قالت نسمة وهى تعود إلى متابعة منظرها فى المرايا :

ــ لم يكن معرضكم قد فتح بعد .. عموما الجايات أكثر من الرايحات !!

ثم ضحكت ضحكة خليعة هزت معها نهديها وردفيها ، فضحك معها الثلاثة فى نشوة بالغة ، ثم تساءل ذو الحلة البيضاء والخاتم الماسى :

ــ ومتى سنأخذ السيارات ؟!

أجاب المنجلاوى :

ــ فى أى وقت .. لكننى أريد أن تقوموا بتجربتها أولا .. فإذا لم تلق القبول فالبائرة إلى بيت أبيها !!

عاد الجميع إلى الضحك الرنان فى حين علق ذو السيجار الفاخر :

ــ إذا عادت السيارات إلى المعرض .. فإنها لن تعود إلا لمجرد الضيافة والصيانة !!

قال المنجلاوى :

ــ مرحبا بكم فى أى وقت !!

قال ذو الخاتم الماسى :

ــ غدا سيحضر السائقون لقيادتها !

ثم تحركت المجموعة خارجا وفى أعقابها سيد ونرجس . ركب المنجلاوى سيارته وإلى جواره نسمة فى حين استقل الرجلان السيارة

الأخرى وانطلقوا دون مجرد التفاتة إلى سيد ونرجس التى شعرت بالدم يغلى فى عروقها . هذا المنجلاوى يكتب المعرض باسمهما لكنه يتصرف كما لو كانا غير موجودين على وجه هذه الأرض .

صعدت إلى مكتبها وفى أعقابها سيد الذى شعر بأحلامه القديمة فى الطموح والسيادة تتضاءل إلى درجة التلاشى . جلس إلى جوارها محبطا متسائلا :

— أرأيت الطريقة التى استعرضوا بها السيارات والألغاز التى تكلموا بها ؟!

ضحكت نرجس معلقة فى سخرية مريرة :

— وأنا التى ظننت أن الحكم عليه بالسجن يمكن أن يحطمه ؟!

— إنه رجل لا يخاف شيئا .. ولذلك لا خوف عليه ولا علينا من أى حكم يصدر ضده !!

انتفضت نرجس فجأة ثم هبطت مسرعة وفى أعقابها سيد الذى لم يفهم شيئا حتى رآها تقلد الزبائن فى الدق بأصابعها على نفس الأماكن فوق الإطارات وهى تقول :

— أراهن أنها سيارات غير عادية !!

— إن خيالك قد شطح بعيدا جدا !!

— إن ما رأيناه مع المنجلاوى أغرب من أى خيال !

— وماذا تظنين بداخلها ؟!

— هذا المنجلاوى أخطبوط متشعب .. وهذا المعرض ليس لمجرد بيع السيارات .. وإنما لتجارة أخطر بكثير .. ولذلك أصر على تسجيله باسمنا حتى نتحمل وحدنا المسئولية ..

ــ وحتى نكون تحت رحمته بالفعل ؟!

ــ فعلا ..

ــ لكن السيارات ستغادر المعرض غدا .. وسيزول معها الخطر !

ــ وستأتى سيارات أخرى وهكذا . لا بد أن نضع خطة عاجلة للاستقلال عنه بأسرع ما يمكن ..

ــ فلنفكر معا .. لأن خير البر عاجله !

ابتسم سيد ابتسامة عابرة لكن نرجس لمحتها فسألته :

ــ عجبا .. ما الخاطر السعيد الذى طرأ على بالك ؟!

ــ ضحكت عندما تذكرت أن هذا المنجلاوى الرهيب صديق أبيك المعلم حنفى الذى لا يعرف فى دنياه غير الجزارة ونعيمة وسهرة الأنس والفرفشة .. ثم خطر على بالى احتمال زيارة أبيك لنا هنا !

رفعت نرجس حاجبها الأيمن الرفيع دهشة وتساءلت :

ــ لماذا هذه الأفكار الغريبة ؟! إننا الآن فى أستراليا !!

ــ إن لك ذاكرة حديدية .. لكن لا تنسى أن إعلانات الصحف والتلفزيون قد نشرت صورنا عدة مرات .. فإذا ظن أبوك أنه مجرد تشابه فى الأسماء فلن يصدق أنه تشابه فى الصور أيضا !!

ــ لم يتبق لدينا سوى هذه المشكلة حتى نحلها هى الآخرى !!

لم تكد نرجس تنتهى من جملتها وتستدير لتصعد إلى مكتبها وإذ بها وجها لوجه مع أبيها بعباءته الداكنة وعصاه الغليظة . صعقت كمن رأى شبحا ، بل إنها ظنته شبحا بالفعل . فلا يعقل أن يأتى لمجرد ذكر اسمه فى حوارها مع سيد الذى أصابه الخرس هو الآخر بحيث وقف الثلاثة كتماثيل متحف الشمع إلى أن خرج صوت المعلم حنفى من أعماقه هادرا عميقا

عريضا ، كسكون ما قبل العاصفة :

— إذا .. فكل ما سمعته ورأيته كان صحيحا .. لم أصدق منه شيئا حتى هذه اللحظة التى ظننت أنها ستمحو كل شكوك الجيران وظنونهم ، فإذ بها تصبح اليقين نفسه .

اقترب سيد منه خطوة مصطنعا الترحيب الباسم :

— أهلا وسهلا يا معلم .. خطوة عزيزة !!

هز حنفى عصاه فى عصبية تمزج السخرية بالمرارة :

— أعز الله مقدارك يا أبا السيد .. منذ متى عدت من أستراليا مع حرمكم المصون ؟!

— سأشرح لك كل شيء بالتفصيل حتى لا تسيىء الظن بنا !

— لا تشرح شيئا .. فلأول مرة أحس أننى أكبر مغفل فى الدنيا .. كان الشك يملؤنى بخصوص حكاية أستراليا .. وطلبت من نرجس إظهار أوراق السفر لكنها ادعت أنها عند صديقكما فى مصر الجديدة .. لكن قلب الأب أجبرنى على تصديقكما .. لكن بعد أسابيع قليلة أفاجأ بالجيران يطلبون منى مشاهدة إعلانات التلفزيون .. ويحضر بعضهم الصحف والمجلات حتى أرى بعينى رأسى العز الذى هبط فجأة على ابنتى وزوجها !!

تدخلت نرجس محاولة تهدئة الأمور :

— ألا يهمك يا بابا أن تعيش ابنتك فى خير زوجها ؟!

— أنا أحب الخير للجميع .. لكن أن أصبح مسخة الجيران والحى كله فهذا ما لا أحتمله !!

ضغطت نرجس على مخارج الألفاظ :

ـــ أنت سيدهم كلهم .. فلا تهتم بما يقولون .. إنها الغيرة !!

ـــ يبدو أننى ظلمت نعيمة .. فقد اتضحت صحة كل ما قالته !

شعرت نرجس بلدغة العقرب القديمة . نسيت إحساس البنوة ولم تتذكر سوى كراهية زوجة الأب :

ـــ إذا .. لا زالت نعيمة تطاردنى ؟!

لوح حنفى بالعصا حتى كادت أن تلمس السيارة القريبة منه :

ـــ لا تحاولى أن تتكلمى عنها هكذا يا غشاشة ؟!

حاول سيد التدخل لتهدئة الموقف . فأمسك بيد حنفى محاولا إدخاله المعرض :

ـــ لا يصح أن نتكلم هكذا فوق الرصيف !! ماذا تحب أن تشرب ؟!

لكن المعلم حنفى تخلص من يده بعنف :

ـــ لن أدخل قبل أن أعرف الكذبة الحقيرة التى انطلت علىّ !!

قالت نرجس بمنتهى الحسم والإصرار :

ـــ ونحن لن نتشاجر هكذا على الرصيف حتى لا نسيىء إلى سمعة المعرض !!

لوح بعصاه مرة أخرى فتذكرت نرجس لحظات اندفاعه المجنون عندما كان ينهال عليها بالعصا . عادت إلى تهدئة الموقف :

ـــ نحن نعمل هنا مجرد موظفين !!

صرخ حنفى وصدرت عنه حشرجة مخيفة :

ـــ كذبة أخرى .. يا ابنة الضائعة ! الموظف لا يكتب اسمه على اللافتة !!

لاحظ سيد أن عمال المعرض الذين يقومون بتلميع السيارات قد تحولوا إلى آذان صاغية لما يدور . اقترب من المعلم حنفى فى شبه همس :
ـــ لا يصح يا معلم .. ادخل أولا وسنشرح لك كل شيء !!
ـــ حد الله بينى وبينكما ..
اشتعل التحدى فى عروق نرجس فانتفضت :
ـــ إذا .. لماذا جئت ؟!
ـــ اتطردينني يا ضائعة ؟! لن أتحرك قبل أن أهدم هذا الدنس على رأسيكما !!

لوح بعصاه فأشارت نرجس إلى عاملين تركا تلميع السيارات وسرعان ما أمسكا بالمعلم حنفى الذى حاول التخلص منهما لكنه لم يستطع . أشار سيد إليهما بأن يتركاه لكن نرجس صاحت :
ـــ لا تتركاه إلا إذا ابتعد عن هذا المكان .. وإلا سأستدعى أمناء الشرطة من على ناصية الشارع !!
وقف سيد حائرا فى حين قال حنفى هادرا :
ـــ لا داعى لاستدعاء الشرطة .. فأنت لست ابنتى ولا أعرفك .. أنت ابنة الفاجرة الهاربة مع تجار المخدرات .. البنت لأمها كما قالت نعيمة !! حسبى الله ونعم الوكيل !! حسبى الله ونعم الوكيل ..
لطم المعلم حنفى عمامته بيده اليسرى ، وبدا كما لو كان على وشك الانهيار . استدار فتركه العاملان . سار وهو ينتفض بين جموع المارة فوق الرصيف حتى اختفت عمامته البيضاء التى كانت آخر شيء رأته نرجس وهى واقفة أمام المعرض . علق سيد بنبرات فى منتهى الإحباط :
ـــ كنت فى منتهى القسوة معه يا نرجس .. إنه رجل كهل على أية

حال ؟!

أجابت نرجس وهى تضغط بأسنانها داخل الفكين :

ـــ من الآن فصاعدا .. لن أسمح لأى مخلوق بأن يهدر وجودنا .. حتى لو كان أبى !! إنه يعايرنى بأمى .. ونسى أنها كانت زوجته فى يوم من الأيام !! أما نعيمة فسأعرف كيف أرد لها الصاع صاعين إذا حاولت الاحتكاك بى مرة أخرى !!

نظر سيد إلى ساعته التى كانت تشير إلى الثانية والنصف فقال متنفسا الصعداء وهو فى طريقه إلى مكتبه العلوى وخلفه نرجس :

ـــ الحمد لله .. لم يبق سوى نصف ساعة على إغلاق المعرض فى هذا اليوم الزاخر بالمفاجآت الكئيبة !!

جلسا فى غرفة المكتب الصغيرة الأنيقة ونرجس تؤمن على قوله :

ـــ فعلا .. إنه يوم المفاجآت الكئيبة !! لكن حسم الأمور فى حد ذاته أمر مريح .. على أى وجه كان !!

لم تكد نرجس تنتهى من جملتها إلا ورأت أحد العمال يصعد السلم المعدنى الصغير فانقبض قلب سيد الذى سأل العامل قبل أن يصل إليهما :

ـــ خيرا ؟!

ـــ جاء رجل يلبس جلبابا بلديا أسود قال إنه أخو حضرتك ويصر على مقابلتك أو انتظارك إذا لم تكن موجودا !!

ـــ هل أخبرك باسمه ؟!

ـــ نعم .. اسمه مصطفى ..

أسقط فى يد سيد لكنه تمالك نفسه وقال للعامل :

ـــ سأهبط لأقابله ..

سبقه العامل إلى الهبوط فى حين نظر سيد من جدار مكتبه الزجاجى فوجد أخاه مصطفى بشحمه ولحمه واقفا يتأمل المعرض بعينين كالصقر . ما هذا اليوم الذى لا يريد أن ينتهى إلا بقيام القيامة ؟! قال لنرجس :

ــ لا تهبطى خلفى !! سأنتهى منه بأسرع ما يمكن .. مثلما فعلت مع أبيك .. كنا نطاردهم من قبل فيصرون على الهروب منا وتجنبنا بل وطردنا .. والآن يصرون على مطاردتنا بعد أن أصبحت رجل الأعمال المشهور سيد بك الرمادى .. إنه زمن العجائب !!

هبط سيد خارجا إلى أخيه الذى أقبل عليه بالأحضان هاشا باشا ، ثم احتضنه بعنف وأمطر وجنتيه بالقبلات الحارة التى أثارت فى سيد إحساسا بالضيق والغثيان فتخلص منه برفق قائلا :

ــ أهلا مصطفى .. ما الذى أتى بك فجأة هكذا ؟! هل مات أحد ؟!

تقبل مصطفى السؤال ببساطة :

ــ أتعتقد أننا لا نراك إلا إذا مات أحد ؟! لقد أوحشتنا كثيرا فجئت للسؤال عنك ! فالظفر لا يخرج من اللحم !!

سأله سيد ببرود :

ــ وكيف عرفت عنوانى ؟!

ــ ليس هناك فى مصر من لا يعرف عنوان سيد بك الرمادى رجل الأعمال الناجح .. فهل يصعب على أخيه معرفة عنوانه ؟!

ــ وكيف حالهم جميعا فى البلد ؟! وخاصة الست الوالدة ؟!

ــ إنها ترسل إليك دعواتها بمزيد من النجاح والتوفيق .. وكانت كل

أمنيتها أن يعيش أبوك حتى يرى أمجاد آخر العنقود بعينى رأسه !!

كانت نرجس تراقب الموقف على أحر من جمر من خلف الجدار الزجاجى دون أن يتمكن مصطفى من رؤيتها ، لكنها رصدت الحركات دون الكلمات التى وقف الجدار دونها . قال سيد مصطحبا مصطفى ومقتربا من الرصيف :

ـــ ألك مدة هنا فى القاهرة ؟!

ـــ لا .. أتيت اليوم من الفيوم فى قطار الثامنة صباحا .. ولم أجد أية صعوبة فى الوصول إليك !!

ـــ وهل جئت فقط للسؤال عنى ؟!

ـــ جئت للسؤال عنك .. وتوصيل القسطين الثانى والثالث إليك مرة واحدة .. فأنت تستحق كل خير !!

دس مصطفى يده داخل جلبابه فأخرج حافظة ضخمة مربوطة إلى جيبه بسلسلة دقيقة ، ولها إطار من الأزرار المعدنية ، فى حين تذكر سيد آخر مرة عاد فيها من الفيوم ، وأسوأ يوم فى حياته حين سرقت منه الجنيهات المئة من الأتوبيس . عدّ مصطفى مئتين جنيه ثم مد يده بها إلى سيد الذى تمنع قائلا فى تساؤل :

ـــ ألم يكن القسط الثانى مئة جنيه فقط ؟! ماذا حدث حتى تغير رأيك هكذا ؟!

ـــ قلت فى نفسى إنك الآن رجل أعمال مشهور !! ولا بد أن مصاريفك قد زادت .. ولذلك قررت دفع القسطين دفعة واحدة !

مد مصطفى يده مرة أخرى لكن سيد ردها مرة أخرى متسائلا :

ـــ وماذا عن مصاريف أبنائك الذين كبروا ودخلوا المدارس ؟! إننى

لا أحب أن أنتزع اللقمة من أفواههم المفتوحة !!

ـــ أنت تعرف يا سيد أن الفلاحين يرضون بأقل القليل .. ويكفى أن لنا أخا ناجحا مشهورا مثلك جعل أعناقنا فى السماء .. إن « دار الرماد » كلها فى عيد منذ شاهدنا صورك فى الجرائد والتلفزيون !

شعر سيد أن الحديث أصبح ذا شجون فأراد أن يحسم الموقف :

ـــ إنك أولى بالمئتين جنيه .. لن أمد يدى إلى أى مبلغ تحتاجه الأسرة !!

حاول مصطفى أن يدس المبلغ فى جيب سيد لكنه أوقفه فى عنف جعله يستسلم متراجعا ويعيده ببساطة إلى حافظته وابتسامة رضا تأخذ طريقها إلى وجهه . سأله سيد متخابثا :

ـــ هل حجزت غرفة فى فندق ؟!

ـــ لا .. فحقيبة سفرى فوق الرصيف !

وأشار إلى حقيبة خشبية تآكل طلاؤها بفعل الزمن فلم يعد لها لون مميز . أسرع سيد بالقول :

ـــ إذا عليك بالبحث عن غرفة قبل أن تشغل جميع الغرف !!

سأله متخابثا بلهجته القروية التى تخلى عنها سيد منذ عمله مع المنجلاوى :

ـــ ألا زلت تعيش فى مصر القديمة ؟!

حسم سيد الموضوع :

ـــ لقد تركتها منذ زمن !!

ـــ وأين تعيش الآن ؟!

ـــ فى بنسيون فى وسط البلد !

ـــ وهل توجد غرفة خالية فى هذا البنسيون ؟!

ـــ ولا غرفة واحدة !

نظر مصطفى إلى أصابع يده اليسرى متسائلا :

ـــ هل تزوجت ؟!

تضايق سيد من الحوار الذى تحول إلى نوع من التحقيق الثقيل :

ـــ لم أتزوج بعد !

ـــ ألا تنوى الزواج من إحدى بنات « دار الرماد » ؟!

ـــ لم أفكر فى هذا الموضوع حتى الآن .. فلدى ما يشغلنى عنه تماما !

حاول مصطفى الاستدارة لدخول المعرض لكن سيدا تصدى له بصدره قائلا :

ـــ سنغلق المعرض الآن .. وإذا رغبت فى العودة فى أى وقت .. فأهلا وسهلا .. برغم أن العملاء يأخذون كل وقتى !!

ـــ إذا سأنتظر حتى أذهب معك إلى البنسيون وأقضى اليوم معك .. ثم أسافر آخر النهار إلى الفيوم .. فلقد أوحشتنى كثيرا ..

ـــ لن أذهب إلى البنسيون إلا فى آخر الليل .. فلدى أعمال كثيرة فى أماكن متعددة ومتباعدة !!

تحسس مصطفى جيبه فى ارتياح متسائل :

ـــ ألن نراك فى « دار الرماد » ؟! الكل فى انتظارك على أحر من جمر !!

ـــ سآتى عندما تسمح لى الظروف بذلك !

تأكد مصطفى من عدم جدوى الحوار .. وقنع بالغنيمة التى عاد بها ومعها كل نصيب سيد فى الأرض . مد يده التى أسرع سيد إلى إمساكها

بحرارة مصطنعة قائلا :

ــ أتمنى أن أراكم جميعا بخير !

احتضنه مصطفى ببرود :

ــ سأعود إلى الفيوم فى أول قطار .. ويكفينى رؤيتك العابرة هذه !

ــ لا تؤاخذنى .. فإن كل دقيقة من عمرى أصبحت محسوبة علىّ ..

حمل مصطفى حقيبته العتيقة وسار حيث اختفى فى نفس الاتجاه الذى اختفى فيه المعلم حنفى قبل ما لا يزيد على نصف ساعة فقط . تنفس سيد الصعداء مرة أخرى فى حين هبطت نرجس كالفراشة على السلم . أمر سيد العمال بإغلاق المعرض . وقف خارجه مع نرجس فوق الرصيف لحين انتهاء العمال من مهمتهم . سألت نرجس عن سر الابتسامة الساخرة على وجهه فقال متسائلا :

ــ لماذا يصر الماضى على مطاردتنا بهذا الشكل ؟!

وضعت أصبعها على فمه ضاحكة :

ــ لا تفتح فمك بكلمة اليوم .. فإن كل كلمة نطقنا بها تحققت فى الحال !!

أخذ سيد المفاتيح من العمال وسار مع نرجس كعاشقين فى طريقهما إلى المطعم الذى تعودا تناول الغداء فيه . قال ضاحكا :

ــ فلننتهز هذه الفرصة ونتمن مجىء ولى العهد !!

ــ أو نطلب مليونا من الجنيهات يمكن أن يكفينا شر المنجلاوى !!

قال سيد وهو يدخل المطعم الفاخر خلف نرجس :

ــ أمرك عجب .. أكلمك عن ولى العهد فتكلميننى عن المنجلاوى !!

١٤

فجأة أصبح المعرض خاويا من كل السيارات دفعة واحدة ، مما أعاد الطمأنينة إلى كل من سيد ونرجس ، وان كانت قد تظاهرت بها دائما فى مواجهة زوجها . تردد الاثنان كعادتهما على المعرض الشاغر إلى أن صدرت تعليمات المنجلاوى لسيد بالاستعداد للعمل الكبير . وعندما سأله سيد عن نوعية هذا العمل وميعاد تنفيذه لم يتلق سوى الجملة التى سمعها مرارا : « ستعرف كل شىء فى حينه » . مما زاد من قلق سيد ونرجس التى حاولت تغطية توترها بتشجيعه والتأكيد على أنها مجرد فترة عابرة سيعقبها الاستقرار وإنجاب البنين والبنات .

وتراوحت حياة سيد ونرجس بين اليأس والرجاء مع مجىء المعلومات إليهما بالتدريج . فقد أخبرهما المنجلاوى بأن المهمة ستقتصر على سيد وسنارة بهدف التدريب مما ضاعف القلق داخل نرجس التى ظنت أن المنجلاوى يريد الابتعاد عن هذه المهمة لخطورتها . ثم حل الأمل محل القلق عندما وعدها المنجلاوى بأن مكافأة هذه المهمة ستكون ثروة بالنسبة لهما ، مما جدد الأمل لديهما فى الاستقلال سريعا عنه . ومع ذلك أصبحت الحياة بلا طعم برغم أن كل طلباتهما مجابة ويعيشان على مستوى لم يكن يراودهما حتى فى الأحلام . فهما فى حقيقة الأمر لا يملكان شيئا ، فالشقة التى يعيشان فيها ليست لها حتى عقد إيجار . كل قطعة أثاث فيها لا تنتمى إليهما . أما معرض السيارات الذى سجل باسمهما مع سنارة ،

فكان شعورهما تجاهه مثل شعور من أوشك على الوقوع فى الفخ . وكان سيد يذهل من أمر نفسه عندما يجتاحه الحنين إلى أيام مصر القديمة وبئر السلم والفول والطعمية .

كان أول ديسمبر يوما شديد البرودة التى لا تكتفى بالتسلل إلى جلد الإنسان ولحمه بل تمد غزوها إلى عظامه حتى النخاع . دق جرس التليفون فهرع سيد للرد وجاء صوت سنارة على الطرف الآخر يطلب منه الاستعداد وعدم الذهاب إلى المعرض ، لأنه سيمر عليه فى تمام الساعة الثالثة ظهرا . وعندما استفهم سيد عن المقصد أجابه : « ستعرف كل شيء فى حينه » . مما جعل الصقيع يتحالف مع القلق ويعشش الاثنان فى أركان الشقة .

كثيرا ما عانت نرجس من القلق عندما اصطحب سنارة سيدا عدة مرات لتدريبه على الرماية فى بدء اشتغالهما مع المنجلاوى . فكان يغيب عنها طوال النهار ولا يعود إلا مع مغيب الشمس ، وكانت هذه أول مرة يبتعد فيها عنها بعد أن اعتادت وجوده دائما . لكن سرعان ما انتهت فترة التدريب وتم افتتاح المعرض الذى منحهما فرصة العيش كعاشقين لا يفترقان برغم مخاوفهما وشكوكهما . وكانت نرجس تسكت قلقها باعتقادها أن العمل فى المعرض يمكن أن يدوم لأطول فترة ممكنة . لكن لم تمض شهور معدودة إلا وبدأ العمل الذى كانت تخافه . فعلى الرغم من أن المصير المعلق من بدهيات الوجود الإنسانى ذاته ، فإنه عندما يتحول إلى حقيقة مادية ملموسة يراها الإنسان رؤية العين ، تصبح حياته جحيما لا يطاق . لدرجة أن نرجس قالت لنفسها ذات مرة : وقوع البلاء خير من انتظاره .

كان سيد فى انتظار سنارة عندما وصل بعربته الحمراء الجديدة . ألقى سيد بنفسه داخل العربة التى انطلقت إلى مقابر باب النصر حيث قابل سنارة بعض الأصدقاء وهناك استبدل عربته بعربة جيب شقت طريقها صوب الصحراء وخلفها عربة مثلها تحمل ثلاثة من أصدقاء سنارة . أثارت الصحراء الباردة برغم الشمس كآبة عارمة داخل سيد . تذكر صحراء الفيوم يوم عاد فى قطار المساء ليلحق بجنازة أبيه ، وتعطل القطار وسط الصحراء والظلام والصقيع . ياه ! ما أبعد اليوم عن البارحة . إنه يبدو يوما موغلا فى البعد ، كأنه فى عصور ما قبل التاريخ ، على الرغم من أنه لم يمر عليه أكثر من عشرة شهور . ولأول مرة منذ اشتغاله مع المنجلاوى ، اجتاح سيدا حنين قاتل إلى « دار الرماد » حيث الفقر والحنان ، الأجساد الناحلة والقلوب الدافئة ، الأزقة المظلمة والنفوس المضيئة .

ـــ لم تسألنى عن مقصدنا برغم اشتياقك لمعرفته فى المكالمة التليفونية ؟

استيقظ سيد من خواطره الدافئة فلسعه صقيع الصحراء ونار القلق . لكنه استوعب سؤال سنارة :

ـــ لا داعى طالما أننى سأعرف كل شىء فى حينه !

ضحك سنارة معجبا بوجهه الوسيم فى مرآة العربة :

ـــ أخيرا أصبحت خبيرا بأسرار المهنة !

لم يرد سيد لانشغاله بتأمل الصحراء الشاسعة التى تمتد حتى خط الأفق . إن خواطر صباه خير ملجأ له من أشباح الخطر التى تحدق به من كل جانب . سأله سنارة :

ــ هل تشعر بالخوف ؟

ــ لا يوجد إنسان على وجه الأرض لم يشعر بالخوف فى حياته !

لم يقتنع سنارة بهذه الإجابة العامة لكنه شعر أن شهية سيد للحوار قد سدت تماما فآثر الصمت الذى ارتفع على أثره حفيف الفراغ المشبع بالهواء البارد الثقيل ، وصوت محرك العربة الرتيب وهى تطوى الرمال تحتها إلى وجهة لا يعلم سيد عنها شيئا . ومع ذلك أعجب سيد بمهارة سنارة الذى يشعر بألفة غريبة مع الصحراء فى حين راوده إحساس غامض مخيف بأن العربة يمكن أن تغرق فى الرمال المتحركة التى قرأ عنها أيام الدراسة .

توارت الشمس خلف التلال فبدت تماوجات الرمال مثل أمواج بحر شاسع تجمدت وصمتت إلى الأبد . لفح الصقيع وجهه فانتابته قشعريرة برغم ملابسه الصوفية الثقيلة . شعر سنارة بما يعتمل داخل سيد فخاف أن يهده الخوف فقال :

ــ لدينا فى العربة ثلاثة مدافع رشاشة وبندقيتان يمكن أن نهاجم بها العفاريت الحمر والزرق فى آن واحد !

لم يرد سيد بل انكمش فى مقعده رافعا ياقة الجاكتة حول عنقه . لم يسكت سنارة فتساءل :

ــ هل نسيت الرماية ؟! إنك لم تتدرب عليها منذ مدة !!

خرج صوت سيد عميقا لدرجة أنه ــ هو نفسه ــ لم يتعرف عليه :

ــ هل نحن بصدد الدخول فى معركة حربية ؟!

ــ لا أعتقد .. لكن الحكمة تتطلب من الإنسان أن يعمل حساب كل شيء !

ـــ إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يعمل حسابا لنفسه فكيف يمكنه عمل حساب كل شىء ؟!

ـــ أين الثقة والطموح الذى كثيرا ما حدثتنى عنه ؟!

ـــ كنت أظن أن الغاية تبرر الوسيلة .. لكن يبدو أنها لا تنفصل عنها !!

لم يفهم سنارة هذه الفلسفة فاستمر فى التساؤل :

ـــ ألم تقل لى إن لكل شىء فى هذه الدنيا ثمنا ؟! هل تريد الحصول على الحلاوة دون أن تلسعك نارها ؟!

ـــ كل الأمور الآن عندى سيان !!

ـــ يبدو أنك تشاجرت مع نرجس ؟!

نظر سيد إلى سنارة نظرات تطاير منها الشرر ، وألجمت لسان سنارة الذى انهمك فى قيادة العربة بالنظر أمامه . فى حين بدأ الظلام فى احتواء الصحراء تدريجيا بحيث اختفت معالمها وخاصة أنها لم تكن ليلة مقمرة . افتقد سيد القمر الذى كثيرا ما صادقه فى ليالى « دار الرماد ».. بون شاسع بين ليالى القرية وليالى الصحراء . فى القرية يسرى الدفء والأمان مع صيحات الخفراء ونباح الكلاب وهدير السواقى البعيد ، أما فى الصحراء فلا يوجد سوى حفيف الفراغ وعواء الذئاب وسكون العاصفة .

على البعد ومضت بعض المصابيح الغازية . أوقف سنارة المحرك وأطفأ الأنوار الكاشفة فى حين فعلت العربة التابعة الشىء نفسه . بالقرب من المصابيح الغازية سطعت أنوار كاشفة ثم أطفئت وسطعت ثلاث مرات . أدار سنارة المحرك وتقدم من الكهف الذى خرج منه نفس

العملاق الأسود الملثم الذى قابل المنجلاوى فى المرة السابقة . سأله عندما ترجل مع سيد :

ــ أين الملك ؟! لماذا لم يأت هذه المرة ؟!

ــ لديه مهمة أخرى منعته من المجىء ! لكننا جئنا مبعوثين منه !!

ــ ونحن جاهزون !!

أخرج سنارة حافظة متخمة من جيب جاكتته الداخلى . أخذها العملاق الملثم وفتحها ثم أخذ فى عد الأوراق المالية الضخمة تحت أحد المشاعل المعلقة فى جدار الكهف والتى كانت تتراقص مع هبات الصقيع خارج الكهف . أشار العملاق لرجاله الملثمين القابعين فى الكهف فوق علب الصفيح والبلاستيك ، والذى تابعهم سيد بنظراته وكأنه يعانى من كابوس حى !

حمل كل رجل منهم علبة فى نفس الوقت الذى سطعت على الكهف كشافات مبهرة أحالته إلى نهار غارق فى الضياء وصوت جهورى يقول فى ميكروفون صغير : « كل واحد فى مكانه . كل واحد يرفع ذراعيه . أية حركة غير ذلك سنرش الكهف بالرصاص » .

فى لمح البصر أطلق رجال الكهف مدافعهم الرشاشة على قوة الشرطة المواجهة للكهف ، فى حين جذب سنارة سيدا قافزا به أسفل عربتهما . واشتدت حمى تبادل الرصاص المنهمر كالمطر مع صرخات الرجال الساقطين بجروحهم وإصاباتهم . كان سيد يرتجف كطفل عار محاط بالثلوج فى حين تسلل سنارة إلى مقعد القيادة ، فلم يجد سيد مناصا من الهرب بجلده مثله ، فزحف تحت العربة ثم قفز فوق مقعده فى نفس اللحظة التى أحس فيها بسكين محماة بالنار تخترق فخذه التى انطلقت منها

نافورة دماء ساخنة . صرخ لكن صرخته الجريحة ضاعت وسط وابل الرصاص وصرخات الآخرين .

أدار سنارة المحرك وانطلق كالمسعور بمؤخرة العربة حتى وقف خلف العربة التابعة التى تركها أصدقاؤه الثلاثة الذين تورطوا فى المعركة المشتعلة . وعندما اطمأن إلى أن رجال الشرطة لم يلحظوا عربته التى كانت بعيدة منذ بدء القتال عن أنوارهم المبهرة ، انطلق كالصاروخ لا يلوى على شىء وغير مستمع لأنين سيد الذبيح .

١٥

منذ أن غادر سيد منزله والقلق ينهش نرجس ويتوغل إلى أعماق أعماقها . تحركت فى الشقة كالأسد فى القفص . فعلت أشياء دون أن تعى شيئا منها . دخلت الصالون وفتحت علبة السجائر وأشعلت أول سيجارة فى حياتها لكنها سعلت كثيرا حتى أصبحت على وشك القىء فأطفأتها . فتحت التلفزيون لكنها لم تع الصور المتحركة تباعا فأغلقته ونهضت إلى الشرفة لكن الصقيع المظلم ضاعف من إحساسها بالوحشة فدخلت دون أن تغلق باب الشرفة حتى شعرت بالصقيع داخل الشقة فأسرعت — بلا تفكير — إلى إغلاقه . دق جرس التليفون فقفزت إليه لكن المكالمة كانت خطأ . استمعت إلى بوق سيارة مشابه لسيارة سيد فانطلقت إلى الشرفة مرة أخرى فوجدتها سيارة بيضاء ثم تذكرت أنه ذهب فى سيارة سنارة ، وأن سيارته قابعة فى الجراج .

ثم دق جرس الباب الموسيقى فدق قلبها معه بعنف متزايد . هرعت

لفتح الباب وإذا بها تجد المنجلاوى مرتديا حلة فاخرة ، لكنها لم تلحظ ابتسامته المرسومة وعطره الفواح . قبل أن يفتح فمه بكلمة تساءلت فيما يشبه الصراخ :

ــ خيرا .. هل وقع لسيد مكروه ؟!

مد يده وربت على كتفها فأدركت أنها ترتدى روبا صوفيا فقط ، فلملمت ياقته عند صدرها الخمرى . قال بابتسامة حانية :

ــ لا تنزعجى هكذا .. فأنا الآن أسكن الفيلا العليا فى العمارة لأننى أفضلها فى الشتاء على فيلتى فى المعادى .. كنت مارا بالصدفة .. فقلت لنفسى : اسأل عليها يا ولد فأنت لم ترها منذ زمن بعيد !!

استردت نرجس أنفاسها اللاهثة :

ــ فيك الخير يا معلم !!

لم يتحرك المنجلاوى وظل واقفا بالباب فقالت نرجس دون أن تدرى وعلى سبيل المجاملة اللاواعية :

ــ تفضل !

لم تكد تنتهى من نطق الكلمة حتى دخل المنجلاوى وأغلق الباب خلفه ، ثم سار دون استئذان حتى جلس على أحد مقاعد الأنتريه . حارت نرجس ماذا تفعل ؟! نسيت قلقها الذى ترك مكانه لإحساس عارم بالحرج والخوف . سألته :

ــ ماذا تشرب يا معلم ؟!

نظر إلى خاتمه الماسى بفخر وقال :

ــ اسمى أشرف !!

قالت لها غريزتها إنها مقبلة على معركة حامية الوطيس . تسلحت

بكل دهائها لدرجة أنها نسيت سيدا فى هذه اللحظة . كررت سؤالها :
ــ ماذا تشرب يا أشرف بك ؟!
ــ اسمى أشرف فقط .. فأنا أحب أن أناديك بنرجس فقط !!
أرادت أن تقطع عليه خط الرجعة :
ــ سأذهب لأحضر لك الشاى وبعض الكيك !
ــ جئت للجلوس معك بعض الوقت حتى يحضر سيد .. فلعلك تعانين من الوحدة !!
قالت وهى لا تزال واقفة بعيدا عنه :
ــ لن يسعد سيد إذا رآك هنا معى بمفردى !
ــ لم أكن أعرف أنه لا يثق فينا نحن الاثنين ؟!
ــ لا تنس أن أخلاقه لا تزال قروية .. ويمكن أن يرتكب أية حماقة إذا أساء فهم أى وضع !
ــ فلنعلمه التمدن .. إنه الآن يعيش على مستوى راق لا يسمح له بتعريض حياته للخطر من أجل أمور تافهة !.
ــ هل تسمح لزوجتك بالانفراد برجل غريب فى شقتها ؟!
لاحظ المنجلاوى أنها لا تزال تقف بعيدا عنه فى إصرار عجيب :
ــ لن أجيب على سؤالك قبل أن تجلسى !
جلست بطريقة لا إرادية فى المقعد المقابل وهى تلملم أطراف الروب بعد أن شعرت بنظراته النارية إلى صدرها . قال :
ــ أولا .. أنا لست متزوجا .. ثانيا .. لست رجلا غريبا .. ثالثا .. يمكننى الانصراف قبل مجىء سيد حتى لا أسبب لك حرجا !
قال الجملة الأخيرة وهو يكاد يغمز لها بعينه . أرادت أن تطيل من

الحوار بقدر الإمكان لحين حضور سيد . وخاصة أنها كانت قد أعدت نفسها لمثل هذا الموقف من قبل . فقد كان المنجلاوى يتصرف معهما كما لو كانا عبدين اشتراهما من سوق النخاسة . لكنها ستثبت له الليلة عمليا أن ظنه لم يكن فى محله على الإطلاق ، وأن الكرامة يمكن أن توجد بين الفقراء أيضا . قدحت زناد فكرها الملتهب وسألته :

ــ ماذا تم فى موضوع الحكم عليك بالسجن ستة أشهر ؟لقد أسفت جدا عندما قرأت الخبر فى الصحف !

استرخى فى مقعده سعيدا :

ــ إننى أعلم شعورك تماما من ناحيتى منذ أيام دكان الجزارة .. وكان هذا الشعور هو الدافع وراء طلب يدك من أبيك العنيد المتهور ...

ندمت نرجس على تعبيرها المصطنع عن الأسف والذى استغله المنجلاوى أسوأ استغلال . عادت إلى نفس السؤال بإصرار :

ــ هل سيحكم عليك بالسجن فعلا ؟!

ــ لا تخافى علىّ .. فلدى القدرة على الخروج من أى موقف مثل الشعرة من العجين !!

ــ نرجو ؟!

تضايق من التشكيك فى قدراته فقال بوقاحة :

ــ لعلمك .. صدر ضدى ما يزيد على عشرة أحكام من قبل .. وها أنذا أجلس أمامك حرا طليقا !

ــ وكيف واجهت هذه الأحكام وتخلصت منها دفعة واحدة ؟!

ــ إنه سر المهنة !

ابتسمت نرجس فى دهاء :

— ولماذا لا تخبرنى بهذا السر ؟! إننى لست غريبة كما تقول !

— أثبتى هذا أولا فأخبرك بالسر ثانيا !

نهض وجلس فى المقعد المجاور . فنهضت بدورها وأدارت التلفزيون وجلست بجواره . نهض وأطفأ التلفزيون وجلس إلى جوارها مرة أخرى . لم تشأ أن تغادر مقعدها مرة ثانية حتى لا تصبح المطاردة مكشوفة بحيث تشجعه على الهجوم وخاصة أن رائحة الخمر انبعثت من فمه عندما اقترب منها . سألته :

— وكيف حال نسمة الصباح ؟!

— هل تعرفينها ؟

— لا .. رأيتها فقط فى المعرض وبهرنى جمالها !

— إن جمالها لا يساوى قلامة ظفر من جمالك !

مد يده يمسك بذراعها الممدودة على مسند المقعد ، لكنها سرعان ما سحبت ذراعها وانكمشت فى زاوية المقعد البعيدة . سألته :

— هل لا زلت تقابل أبى ؟!

— بالمناسبة .. لماذا جاء إلى المعرض وتشاجر معكما ؟!

— وكيف عرفت ؟!

— إننى أعرف كل ما يجرى سواء أكنت موجودا أم غير ذلك !!

تحمست نرجس لهذا الموضوع الجديد الذى يمكن أن تتكلم فيه أطول مدة ممكنة . قالت :

— لقد دفعته زوجته كى يشوه صورتنا فى مكان عملنا !!

— كنت على حق يوم أنقذتك من مخالب زوجة أبيك !

— ونحن لن ننسى هذا الجميل لك طول العمر ..

أحس المنجلاوى بنرجس تستدرجه إلى الثرثرة تضييعا للوقت ، فقال وهو يركز نظراته على عينيها الرماديتين اللتين بدا عليهما القلق والإنهاك :

— إننى رجل عملى .. وأحب رد الجميل فى أسرع وقت !

تذكرت نرجس سيدا الذى لم يعد بعد فأحست بغصة تمسك بخناق قلبها لكنها تماسكت بقدر إمكانها فى تلك الليلة التى حكم عليها فيها أن تحارب معركتين فى آن واحد . إنه اختبار لمدى صلابتها وصمودها وستثبت للمنجلاوى أن هناك من يستطيع أن يتحداه . نظرت إلى ساعتها وقالت :

— لقد تأخر سيد أكثر مما توقعت !

— لا تقلقى .. سرعان ما تجدينه أمامك ..

نظر المنجلاوى بدوره إلى ساعته فوجد أن الوقت أوشك أن يسرقه . نهض فجأة وجلس على مسند مقعد نرجس واضعا ذراعه على المسند الآخر بحيث جعلها أسيرته . قال وأنفاسه تلفح وجهها :

— لم أر فتاة فى ذكائك ودهائك ؟ إننى أعشق دهاء النساء !

هم بأن يقبلها لكنها استجمعت شتات قوتها وانتفضت واقفة بحيث وجد نفسه مقلوبا رأسا على عقب فوق السجادة . قالت لاهثة :

— متأسفة لا أقصد هذا !

قال والشرر يتطاير من عينيه فوق السجادة :

— إذا كنت تدعين الشرف بهذا الإصرار فلماذا قبلت العمل معى وأنت تعرفين ما تعرفين ؟! إن هذا الادعاء لا يمكن أن ينطلى على المنجلاوى . لقد وصفك أبوك نفسه بالضياع يا ضائعة يا بنت

الضائعة !! تأكلين خبزى وترتعين فى خيرى وترفضين مجرد أن أمسك .. لقد تعودت أن أحصل على أى شىء أريده وسترين !

نهض واقفا مصلحا من هندامه فى حين تراجعت نرجس إلى أبعد زاوية فى الغرفة . تقدم منها فى خطى ثابتة فتوسلت إليه محاولة الإمساك عن البكاء حتى لا تنهار تماما :

ـــ أرجوك يا معلم !! سيد على وشك الوصول !

لوح بذراعه اليمنى منذرا متوعدا :

ـــ فليذهب سيد إلى الجحيم .. وأنت معه إذا ادعيت الشرف أكثر من هذا .. فأنا لا أنسى نظراتك المغرية لسنارة ! إنك تفضلينه علىّ لوسامته وجماله وشبابه .. لكنكم جميعا تحت رحمتى .. منذ ثلاثين عاما فضلت ابنة عمى صديقها علىّ فدخلت السجن بسببها خمسة عشر عاما !! والآن تفضلين سنارة علىّ .

صرخت نرجس عندما أطبق عليها فى الركن :

ـــ كلها أوهام يا معلم !! إن سيد هو الرجل الوحيد فى حياتى .

ـــ لا يمكن أن أنسى نظرات الاشتهاء فى عينى سنارة . لكننى سأفوز بك قبله .

أطبق على وجهها بشفتيه وهى تقاومه فى استماتة صارخة . انهالت بقبضاتها الحديدية على صدره فآلمته لكنه قرر الزحف حتى النهاية . مزق صدر الروب فبدا صدرها البض الناهد . هم بأن يطبق عليه بشفتيه فإذا بجرس الباب يدق . لكن المنجلاوى لم يتوقف إلا عندما تحولت دقات الجرس إلى دقات عنيفة على الباب نفسه . تراجع قليلا فانتهزت نرجس الفرصة . لملمت صدر الروب وهرعت إلى الباب فوجدت الكابوس

يجثم على أنفاسها .

كان سنارة ممسكا بسيد الذى بدا فاقدا للوعى فى حين غطت الدماء بنطلونه الذى تمزق تماما حول فخذه اليسرى التى أحيطت بضمادة ضخمة من قماش البنطلون نفسه . قال سنارة لنرجس التى فتحت فاها دون أن تستطيع النطق أو الصراخ :

ــ ساعدينى لإدخاله غرفة النوم حتى نستدعى الطبيب ! وسارت به مع سنارة الذى لمح المنجلاوى واقفا يتابع ما يجرى . سألت سنارة بصوت بح من المقاومة :

ــ ماذا جرى يا سنارة ؟! ماذا جرى ؟!

قال سنارة وهو يرخى جسد سيد فوق فراشه :

ــ اطمئنى يا نرجس .. مجرد جرح فى فخذه جعله ينزف لولا أننى ربطته له فى منتصف الطريق .. سنستدعى الطبيب حالا لإسعافه ..

قال المنجلاوى الذى وقف بباب الغرفة :

ــ هل جننت يا سنارة ؟! سيبلغ الطبيب الشرطة أولا !

دهش سنارة للغباء الذى تساءل به المنجلاوى لأول مرة ، فقال متسائلا بدوره :

ــ هل نسيت الدكتور غريب طبيبنا الخاص ؟!

دق المنجلاوى على جبهته متذكرا ما تاه عن عقله :

ــ ياه ! نسيته تماما .. سأحضره حالا !

خرج المنجلاوى مسرعا فى حين كانت نرجس تتابع ما يجرى بعيون زائغة ونظرت ذاهلة ولسان هامد فى فمها ، وهى جالسة محتضنة زوجها الذى أغمض عينيه لكن تنفسه البطىء طمأنها . بدا سنارة قلقا فأكبرت

نرجس فيه هذا السلوك . سألته :

— ماذا جرى ؟! أرجوك .. احك لى بالتفصيل !

— ليس هذا وقته ! المهم سلامته أولا !

كان سنارة سعيدا لهذا الحديث الخاص الذى دار بينه وبين نرجس فى غرفة نومها ، والذى جعله يقترب منها أكثر . سألته :

— ومن هو هذا الطبيب الخاص الذى لن يبلغ الشرطة ؟!

— إنه الدكتور غريب الذى يقطن — لحسن الحظ — فى هذه العمارة .. لم يستطع أن يكمل دراسته فى كلية الطب بعد أن وصل إلى السنة الخامسة .. وذلك لظروف عائلية قاسية .. فالتقطه المعلم المنجلاوى كعادته وجعله طبيبنا الخاص بعيدا عن مشاكل الطب الرسمى !

سرحت نرجس بفكرها بعيدا وقالت هامسة :

— تماما .. مثل سيد !

— لقد تخصص المعلم فى اكتشاف المواهب الدفينة !!

— وهل الدكتور غريب هذا ماهر فى علاج هذه الجروح ؟!

— إنها تخصصه بحكم الممارسة العملية بحيث يبز أى طبيب آخر تخرج فعلا فى كلية الطب !

دخل المنجلاوى ومعه شاب أبيض يحمل معه حقيبة متوسطة الحجم . هز رأسه محييا دون أن يفتح فمه بكلمة . أمسك بذراع سيد لقياس النبض ثم كشف بالسماعة على صدره ، ونرجس تتابع بعينين تكاد تقفزان لسؤال الطبيب الذى لم ينظر إليها بل قال للمنجلاوى الواقف بالباب :

ــ الحالة مطمئنة !!

ثم كشف على فخذ سيد ضاغطا عليها بأصابعه حتى تأوه سيد بصوت واهن خافت . التفت إلى المنجلاوى مرة أخرى وقال :

ــ لحسن الحظ أن الرصاصة لم تمس العظام .. بل استقرت داخل اللحم بحيث يمكننى إخراجها بلا تخدير .. قبل أن يفيق ويعود إلى وعيه .

قال المنجلاوى بصوت مهتز بعض الشىء :

ــ أرجوك يا دكتور .. بأسرع ما يمكن !

فتح الطبيب حقيبته وأخرج منها أسلحته الجراحية التى مسحها بقطعة من القطن المبلل بمحلول مطهر . استخدم مشرطا فى توسيع الجرح فتأوه سيد وعاد الدم يتدفق من جديد لكن الطبيب أخرج من حقيبته ضمادتين عريضتين طويلتين لفهما بقوة حول الفخذ ، ثم أمسك بملقاط طويل دسه داخل الجرح فتأوه سيد بصوت أعلى هذه المرة . أمسك برأس الرصاصة وجذبها بسرعة جعلت سيدا يصرخ بصوت رد الروح لنرجس التى كتمت أنفاسها لتسمع تردد نفس زوجها .

رفع الطبيب ساق سيد إلى أعلى . غطى الجرح بطبقة كثيفة من صبغة اليود ثم ضمد الفخذ برباط قوى وأعاد الساق إلى مكانها قائلا للمنجلاوى :

ــ لن يمر شهر قبل أن يعود إلى حالته الطبيعية لكن المهم التغيير المنتظم للضمادات ، وتناول مضاد حيوى وفيتامينات سأكتبها له .

ثم أخرج ورقة بيضاء وكتب عليها الأدوية المطلوبة . تناولت نرجس الورقة فى حين نهض الطبيب قائلا :

ــ كانت هذه أخف حالة لمستها حتى الآن .. سيعود إلى وعيه

بسرعة .. لكن المهم عدم الحركة خوفا من النزيف .. وإذا استجد جديد فإن شقتى فى الدور الخامس ..

استأذن الطبيب وخرج فى حين تبادل المنجلاوى وسنارة نظرات زاخرة بالمعانى والدلالات . قال لسنارة :

ـــ طالما أن الحالة مطمئنة .. والدكتور فى الدور الخامس .. ففى إمكاننا الانصراف والعودة صباحا للاطمئنان عليه !

لكن سنارة قال برقة جعلت الدم يغلى فى عروق المنجلاوى :

ـــ تفضل أنت يا معلم لتستريح .. أما أنا فسأبقى حتى يعود سيد إلى وعيه .. فلا يمكن ترك نرجس وحدها ..

لأول مرة لا يجد المنجلاوى مناصا من الرضوخ :

ـــ وهو كذلك .. يا سنارة .. أرجو أن يعود إلى وعيه بأسرع ما يمكن !!

خرج المعلم تاركا باب الشقة مفتوحا ، لكن سنارة أسرع خلفه وأغلقه وعاد إلى الجلوس على طرف الفراش مستمتعا بمشهد نرجس وهى تحتضن سيدا ، وتمنى لو كان هو الجريح .

١٦

سرعان ما تماثل سيد للشفاء ، فى حين أوشك المنجلاوى على أن يموت قلقا وخوفا لأول مرة فى حياته . لاحظت نرجس حالته المضطربة لكنها لم تحاول حتى مجرد السؤال فقد كانت منهمكة فى رعاية زوجها الذى لم تتركه لحظة واحدة فى حين استغل سنارة الفرصة لملازمتهما تحت

ستار تلبية طلباتهما كأخ وصديق ، لكنه كان مستمتعا فى الواقع بصحبة نرجس التى لم تصده على الإطلاق ، بل وجد منها ترحيبا باسما فى كثير من المواقف . وذات مرة لا ينساها كانت فى المطبخ تسخن ماء ودخل عليها فجأة فرأى الروب قد انحسر عن فخذها الرشيقة الساخنة ، وعندما تظاهر بأنه ينظر فى اتجاه آخر ، وجدها تبتسم ابتسامة خدرته فى مكانه .

أما حالة المنجلاوى المضطربة فلم تكن ترجع إلى ضياع الصفقة الأخيرة من يده ، بل كانت بسبب بقاء أحد المساعدين الثلاثة فى السيارة التابعة على قيد الحياة وإن كان فى غيبوبة نتيجة لرصاصة اخترقت الجمجمة . وكان السؤال الذى طارد المنجلاوى فى صحوه ومنامه : ماذا لو أفاق من غيبوبته وحكى للنيابة القصة كلها ؟ إن أحدا من أفراد عصابة الملثم لم يكن يعرف شيئا عن المنجلاوى أو حتى اسمه الحقيقى ، أما هذا المساعد الثالث فإنه اليد اليمنى لسنارة ويمكنه أن يبوح بكل ما يعرفه . لكن سنارة طمأن المنجلاوى بأن رصاصة فى الجمجمة لا تعنى سوى الموت المحقق . ثم عادت المخاوف تهاجم المنجلاوى وظل يفكر ويفكر .

أدركت نرجس بعد أحداث تلك الليلة الرهيبة أن القانون الذى يحكم غابة المنجلاوى هو : « التهم الآخرين قبل أن يلتهموك ! » وقد تعود المنجلاوى التهام الآخرين ، وها قد حل الدور على سيد وعليها ! ولولا حسن حظ سيد لكان الآن فى عداد الأموات ، ولولا استبسالها فى المقاومة ودخول سنارة مع سيد فى الوقت المناسب لكانت الآن من حريم المنجلاوى !! إذا مهما كان جبروت المنجلاوى فلا بد من التفكير فى طريقة تجعله يشرب من نفس الكأس المرة التى أذاقها للآخرين !

ــ فيم تفكرين ؟!

أيقظ سؤال سيد نرجس التى كانت جالسة إلى جواره فوق الفراش :

ــ كنت أفكر فى طريقة نستيقظ بها من الكابوس الذى نعيشه !

ــ أعرف مدى إلحاح هذه الفكرة عليك .. لكن انتظرى قليلا .. فقد وعدنى المنجلاوى بمنحى نصيبى برغم الصفقة التى ضاعت عليه حتى يثبت لى عمليا حسن نيته !

ــ هذا الوحش ليست له علاقة بأية نية حسنة على ظهر الأرض !

ــ لا يهمنى حسن نيته بقدر ما يهمنى المبلغ الذى يمكن أن نبدأ به حياة شريفة مستقلة !

ــ وهل تعتقد أنه سيتركنا فى حالنا لنبدأ هذه الحياة ؟!

ــ هذا هو ما أريدك أن تفكرى فيه معى !

ــ عمرك أطول من عمرى .. فهذا هو ما كنت أفكر فيه بالفعل !

دق جرس الباب فتساءل سيد :

ــ هل تتوقعين مجىء أحد الآن ؟!

ــ لعله سنارة !

ــ لم أعد أستريح لوجوده فى بيتى !

ــ كلها مرحلة عابرة لا تلبث أن تزول !

نهضت نرجس لتفتح الباب فإذا بسيد يسمع صوت نسائى يعرفه جيدا ، ينهال بالترحيب على نرجس ، وبالقبلات ذات الرنين العالى فى حين لم ترد نرجس التى أغلقت الباب . وران الصمت للحظات عرف فيها سيد أنه صوت نعيمة . لماذا جاءت ؟! وكيف عرفت العنوان ؟ هذا ما ستعرفه نرجس حالا .

جلست نعيمة على نفس المقعد الذى حاول المنجلاوى سجن نرجس فيه من قبل . كانت حاملا فى شهورها الأخيرة بحيث بدا بطنها مثل قبة ضخمة تحت ردائها الأسود مما ذكر نرجس بطفلها الذى طال انتظاره والذى تحرق سيد شوقا إليه . كان منديل الرأس المحكم لا يزال يرفع حاجبها الأيسر حين قالت بعد أن لاحظت وجوم نرجس :

ــ أوحشتمونا كثيرا يا حبيبتى !

نزل سؤال نرجس على رأسها مثل كوب ماء مثلج فى جو بارد :

ــ وكيف عرفت العنوان ؟!

تجلدت نعيمة وأجابت وهى تمسح الأثاث الفاخر بعينيها :

ــ من يسأل لا يتوه يا حبيبتى ! ثم إننا لسنا غرباء حتى نعجز عن معرفة العنوان والسؤال عن الأحباب ! مهما كان فالظفر لا يخرج من اللحم !

لم تخرج نرجس عن وجومها وتحفظها :

ــ أية خدمة يمكن أن أؤديها لك ؟!

وجدت نعيمة أن كل المقدمات الأسرية والأخوية قد ذهبت هباء فآثرت أن تقتحم قلب الموضوع :

ــ عليك نور .. إن أباك الذى كان يدك الأرض دكا تحت قدميه قد كبر فى السن فجأة عشرات السنين .. منذ زيارته لك فى المعرض وقد حكى لى ما حدث بالتفصيل .. كانت صدمة فظيعة لم يفق منها حتى الآن !

ــ وما الذى يمكننى عمله ؟!

ــ أن تقومى بزيارته والاعتذار له فهو أبوك على أية حال !

ــ وماذا أيضا ؟!

استمرت نعيمة فى زحفها دون حساب للعاقبة :

ــ وأن تساعديه بالمال بعد أن فتح الله عليك .. وبعد أن تدهورت أحواله .. فقد أصبح ينفق كل أمواله على المخدرات فى حين سيطر الصبية على المحل وأخشى أن يستولى عليه أحدهم تماما قبل أن يكبر ابنى حسين ويحل محله ..

تساءلت نرجس ونذر الشر تتطاير من رماد عينيها :

ــ ألهذا السبب جئت ؟!

ــ حق الوالدين على الأبناء !

قالت نرجس بصوت مكتوم كالبركان قبل الانفجار :

ــ ليست لى أدنى علاقة بما جئت من أجله !

نسيت نعيمة نفسها :

ــ كيف وقد عاد الرجل منهارا تماما منذ زيارته لك ؟!

ــ ومن الذى دفعه إلى هذه الزيارة ؟

ــ رأى اسم زوجك وصورته فى الجرائد والتلفزيون ! كان يوما مشئوما ! عاد وهو يقول إنه إذا كان قد تحمل صدمة أمك فى شبابه فإنه لن يستطيع تحمل صدمتك فى كهولته !

شعرت نرجس بالقشة التى قصمت ظهر البعير فانفجر البركان :

ــ لا يزال لسانك قادرا على اللدغ بسم العقرب .

قاطعتها نعيمة بصوت أعلى :

ــ لا تنسى أننى فى بيتك الفخم على آخر الزمن !

كانت نرجس على وشك أن تعترف بأنه لم يكن بيتها فى يوم من الأيام

لكنها تماسكت :

ــ إذا كنت فى بيتى فهذا لا يمنحك الحق فى إهانتى فى الوقت الذى تطلبين فيه أن أحترمك !

ــ عندك حق .. فأنتم الأغنياء ونحن الفقراء !!

حتى الجحيم الذى تحياه نرجس أصبح مثار حقد نعيمة . هل يمكن أن يحسد البشر إنسانا على شىء لا يملكه ؟! تذكرت كيف تسببت نعيمة فى طرد سيد من الدكان ، ثم دار أمامها شريط الذكريات بالصفعات والركلات وعصا أبيها التى كان يمكن أن تقتلها فى لحظة من لحظات غضبه الطائش . انتفضت نرجس واقفة صارخة فى نعيمة :

ــ ليس بيننا كلام .. تفضلى !!

ثم أشارت نرجس بعصبية نحو الباب . نهضت نعيمة متثاقلة وهى تكاد تحمل بطنها المنتفخ بيدها اليسرى وحقيبتها باليمنى :

ــ أتطرديننى من بيتك ؟! أعرف جيدا أنك تريدين تحطيم أعصابى حتى أجهض ، لكننى لن أحقق لك رغبتك . سأتركك لغيظك وحقدك !

صرخت نرجس وجسمها كله ينتفض :

ــ اخرجى قبل أن أقتلك !

بلغت نعيمة الباب ثم استدارت وقد تضاعف ارتفاع حاجبها الأيسر :

ــ ألم أقل لك ؟!

ثم خرجت فصفقت نرجس الباب خلفها صفقة جعلت سيدا ينتفض فى فراشه . فمنذ الحادث وأعصابه أصبحت كوتر مشدود . دخلت

نرجس وجلست إلى جواره متسائلة فى سخرية مريرة :

ــ طبعا عرفت من هى الضيفة العزيزة ؟!

ــ لم يكن هناك داع لكل هذا العنف .. فأعصابى لم تعد تحتمل !

ــ لا بد أن تتحرك فى الشقة أطول مدة ممكنة حتى تسترد لياقتك . فقد صرح لك الطبيب بالحركة والخروج !

ــ لا يزال الجرح يؤلمنى كلما تحركت .

داعبته بأصابعها فى شفتيه :

ــ إنك اعتدت الكسل والدلال .. حتى المنجلاوى أصبح يدللك لسبب لا أعرفه !

ــ فعلا .. لقد تغير كثيرا منذ الحادث بحيث أصبح أكثر إنسانية !

ــ إحساسى يقول إنه خائف من شىء ما !

ــ لا أعتقد أن هناك ما يخاف منه . فقد لقى كل أفراد العصابة مصرعهم بما فيهم مساعدونا الثلاثة .. فالذى لم يمت منهم فى غيبوبة مستمرة ولا بد أن يلحق بهم قريبا !

احتضنت نرجس سيدا بكل الحنان :

ــ حمدا لله الذى حافظ عليك وسط هذا الجحيم !

دق جرس الباب مرة أخرى . نهضت نرجس قائلة :

ــ لو كانت هى مرة أخرى . فسألقى بها فى بئر السلم !

ضحك سيد ضحكة خفيفة وقال :

ــ لا تذكرينى ببئر السلم ! كانت أروع أيام !!

ابتسمت نرجس مربتة على شعره وخرجت . فتحت الباب فوجدت المنجلاوى وسنارة يحملان لفائف الحلوى والفاكهة . ابتسمت لسنارة

ابتسامة عذبة أصابت المنجلاوى بلسعة من الغيرة الدفينة لكنه تظاهر بالبهجة . أما سنارة فكادت النشوة تسكره لإحساسه أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من قطف التفاحة التى أطارت صوابه منذ أن رآها لأول مرة . دخل الثلاثة غرفة النوم . جلس المنجلاوى على مقعد على يمين الفراش وسنارة على يساره . قال المنجلاوى :

ـــ طالما يا أبا السيد أن الطبيب قد صرح لك بالخروج .. فسنخرج غدا سويا إلى البنك لتفتح حسابا جاريا تضع فيه نصيبك من الصفقة التى لم تتم حتى تتأكد أننى عند كلمتى حتى فى الخسارة الفادحة !

قال سيد فى رقة متزايدة :

ـــ لا أريد أن تظلم نفسك يا معلم !

ـــ لا تقل مثل هذا الكلام .. يكفى أنك عرضت حياتك للخطر من أجل العمل معى !

ضحك سنارة قائلا للمنجلاوى :

ـــ من يسمعك يا معلم يقل إننى لم أعرض حياتى للخطر معه !

ـــ ومن يسمعك أيضا يا سنارة يقل إنك لم تحصل على نصيبك !

استمر سنارة فى دعابته الضاحكة :

ـــ اعتبرها يا معلم تأمينا ضد أخطار المهنة !

قال المنجلاوى لسيد :

ـــ ونحن قادمون إلى هنا .. اقترح سنارة اقتراحا وافقته عليه .. فقد قال إن الاشتراك فى صيد البط عند بحيرة قارون حلم من أحلامك التى لم تتحقق بعد .. ولذلك قررنا الذهاب جميعا فى الأسبوع القادم احتفالا بنجاتك وللترفيه عنك ..

ـــ لم أعد آمل فى مثل هذه الأحلام !

ومضت عينا نرجس بوميض فضى مخيف وقع على سنارة ثم اتجه إلى المنجلاوى الذى قالت له :

ـــ فعلا يا معلم .. نحن جميعا فى حاجة إلى الترفيه بعد كل ما حدث .. حتى يمكننا استئناف نشاطنا بحيوية جديدة !

لاحظ المنجلاوى النظرات الخفية المتبادلة بين سنارة ونرجس بعيدا عن رقابة سيد . نهض من مكانه قائلا لسيد :

ـــ لقد جئنا للسؤال عنك .. والحمد لله .. يمكنك الخروج الآن .. سأمر عليك غدا فى تمام التاسعة للذهاب إلى البنك .. هيا يا سنارة !! لدينا بعض الأعمال التى لا بد من إنجازها !

خرج المنجلاوى مودعا لكن سنارة تلكأ بعض الشىء عند المدخل ليفوز بنظرة من نرجس . وقف المنجلاوى خارجا فى انتظار المصعد فى حين غمزت نرجس لسنارة قبل أن يخرج هامسة قرب أذنه :

ـــ فى انتظارك غدا .. هنا !

دارت الأرض بسنارة ولم يصدق أذنيه لكن نرجس هزت رأسها لتأكيد قولها فانطلق صوب المنجلاوى الذى فتح باب المصعد ليدخل معه . لم يخف على المنجلاوى تخلف سنارة عنه ثم انطلاقه بهذه النشوة الطارئة لكنه أخفى شعوره وضغط على مفتاح المصعد . فى حين عادت نرجس إلى سيد ولا يزال الوميض الفضى المخيف يشع من عينيها .

١٧

فى تمام العاشرة كان قلب سنارة يدق الجرس الذى ضغط عليه بيد مرتعشة بعض الشيء . فتحت له نرجس مرحبة مبتسمة مثيرة . كانت ترتدى بنطلونا أسود يحتضن ساقيها بعنف معربد ، وفوقه بلوزة حمراء تعلن عن مفرق صدرها بجرأة تتنافى مع برودة يناير ، فى حين انضوت خصلات شعرها الفاحم الناعم تحت لواء شريط رمادى فضى يواكب بريق عينيها . أعلنت أنوثتها المتفجرة عن جمالها الغجرى الوحشى المتربص بالفريسة والخارج من عقاله أخيرا . لم يعرف سنارة عدد الثوانى أو الدقائق التى مضت وهو يتأملها إلى أن سمع صوتها يسيل منه الإغراء :

— تفضل .. إنها ليست أول مرة تأتى فيها إلى هنا !

قدم سنارة قدما وأخر أخرى ، تلفت يمنة ويسرة فقالت نرجس :

— لقد جاء المنجلاوى واصطحب سيدا إلى البنك !

— وهل سيعودان فور الانتهاء من البنك ؟

— يجب أن نضع هذا فى اعتبارنا !

انتشى سنارة لتلميحات نرجس التى أوشكت على التصريح . لاحظت هى بدورها وسامته وسحره . رثت لإنسان مثله ينتظره مثل هذا المصير . جلست على نفس المقعد الذى حاول المنجلاوى سجنها فيه من قبل فى حين أشارت إلى المقعد المجاور متسائلة ضاحكة :

— هل ستظل واقفا هكذا فى انتظار عودتهما ؟!

جلس بلا تفكير ملتهما وجهها وصدرها بعينين استبد بهما الجوع :

ــ إننى لا أستطيع أن أعبر عن سعادتى الغامرة بتحقيق أمل ظننته مستحيلا بمرور الأيام !

ــ لقد علمنا المنجلاوى أن لكل شىء ثمنا فى هذه الدنيا . وطالما أن الإنسان يملك الثمن فلن يواجه بالمستحيل !

مد سنارة يده مربتا على يدها التى سحبتها فى رقة باسمة . وضعت ساقا على ساق فبدت تمثالا للرشاقة والإغراء . تساءلت فى عذوبة أسالت لعاب سنارة .

ــ إذا طلبت منك يا سنارة خدمة فهل يمكن أن تؤديها لى ؟

قال فى حماس متأجج وهو يميل تجاهها :

ــ إذا طلبت القمر فسأحضره لك !

ــ إن طمعى لا يصل إلى هذا الحد !

ــ لكن هل ستطبقين مبدأ المنجلاوى ؟

ــ طبعا !

ــ وما ثمن الخدمة ؟!

ــ أنا !!

عاد الوميض الفضى الوحشى فى عينيها . تحاشاه سنارة قائلا :

ــ لا بد أنها خدمة خطيرة طالما أن الثمن غال بهذا الشكل !

ــ لا شىء يغلو عليك يا سنارة !

نهض وأمسك يدها وانهال عليها بالقبلات فتركته لبرهة وجيزة ثم ابتعدت عنه فى ركن مقعدها عندما نجح فى اختلاس قبلة من وجنتها . دفعته برقة إلى أن عاد إلى وضعه فى مقعده قائلا :

ـــ لم نتفق بعد ؟!

ـــ أنا ملك يديك !

ركزت عينيها على وجه سنارة قائلة بألفاظ غاية فى الوضوح :

ـــ أنا التى سأصبح ملك يديك إذا نجحت فى التخلص من المنجلاوى !!

كان سنارة يستشعر خطورة نرجس فى مواقف كثيرة ، لكنه لم يتصور أنها خطيرة بهذا الشكل . تمالك نفسه وسألها :

ـــ ألم تستقبليه هنا ؟! لقد رأيته بعينى يستقبلنا معك يوم عودتنا ! لا أعرف ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن زوجك كان فى وعيه ؟!

ـــ لهذا السبب فقط طلبت منك ما طلبت ؟!

حلت معالم الجدية محل الرغبة المتأججة على وجه سنارة :

ـــ هل لى أن أسأل عما دار بينكما ؟!

ـــ دق جرس الباب ففتحته . بدون استئذان اقتحم الشقة وحاول استدراجى حتى يعتدى علىّ وعندما قاومته بكل عنف صرخ وقال لى إنك السبب فى مقاومتى له !

أسرع سنارة بالتساؤل :

ـــ أنا ؟ لماذا ؟!

ـــ لقد قتلته الغيرة بسبب نظراتى إليك .. وتأكد أخيرا من حبى لك .. ولذلك قرر الانتقام منى ومنك !

ـــ لكننى لم ألحظ نظراتك لى إلا بعد تلك الليلة الرهيبة ؟!

ـــ ليست غلطتى على أى حال !

ـــ هل كنت أعمى إلى هذا الحد ؟!

ــ اسأل روحك !

ــ وماذا عن زوجك إذا نفذت لك طلبك ؟!

ــ لا تحمل همه ! إنه فى إصبعى مثل الخاتم !

قالت ذلك وهى تشير إلى خاتم الزواج فى إصبعها الذى أمسكه سنارة ثم جذب يدها وانهال عليها بالتقبيل مرة أخرى . لكنها سحبتها ضاحكة :

ــ لم نتفق بعد ؟!

ــ أنا ملك يديك ..

ــ وعندما تنجح فى التخلص من المنجلاوى ، فإنك ستصبح السيد بلا منازع .. فأنت تعرف كل دهاليز مهنته وأسرارها !

أضاءت الرغبة فى عينيه مرة أخرى :

ــ إننى لا أريد السيادة .. إننى أريدك أنت !!

ــ قلت لك سأكون ملك يديك !

ــ الموضوع فى حاجة إلى تخطيط دقيق حتى يبدو طبيعيا !

ــ لقد جهزت كل شىء !

سألها سنارة متخابثا :

ــ ألم تشعرى بأى تأنيب للضمير ؟

ــ إننا سنخلص العالم من شروره .. قبل أن يتخلص منا واحدا بعد الآخر ! إنه لم يشعر بأى تأنيب عندما ألقى بك مع سيد فى الجحيم !

ــ وما هى خطتك ؟! إننى عاشق لجبروت النساء !

ــ الخطة فى منتهى البساطة .. لقد اتفقنا على الذهاب إلى بحيرة قارون للاشتراك فى مهرجان صيد البط .. وبحكم بطولاتك المتعددة فى الرماية

فإنك أمهر من يتخلص منه .. وسيظن الجميع أنه قضاء وقدر .. مجرد رصاصة طائشة ..

ـــ وأين سأكون حين إطلاق رصاصتى ؟!

ـــ ليس لخبير مثلك أن يسألنى فى صميم تخصصه وعبقريته ؟

ـــ أنا الذى لم أر امرأة فى عبقريتك وجبروتك .. لكن ما الذى يضمن لى أنك ستقومين بتنفيذ دورك فى الاتفاق ؟! إننى أرى حبك واضحا لسيد فى كل تصرفاتك تجاهه !!

ذهلت نرجس لمباراة الدهاء القائمة على قدم وساق بينها وبين سنارة . لم تستسلم :

ـــ أتطلب منى أن أعامله بجفاء وهو مجروح طريح الفراش فى حين أعاملك أنت برقة ودلال ؟! أين دهاؤك حتى تسأل هذا السؤال ؟!

ـــ أريد الآن إثباتا يؤكد لى جديتك فى تنفيذ الاتفاق !

ـــ تقصد عربونا ؟!

ـــ تعجبنى صراحتك !

ـــ ألا تخاف أن تطول جلستك حتى عودتهما ؟!

ـــ ليس قبل الحصول على العربون !

نهضت نرجس شامخة أمامه فشعر بالدفء يشع من حنايا جسدها الممشوق المعربد داخل البنطلون الأسود الضيق والبلوزة الحمراء الرقيقة . تسلل عطر جسدها فقبع فى خياشيمه ، وأسكره لونها الخمرى . نهض بدوره واقفا بمحاذاتها . أحاطها بذراعيه فأغمضت عينيها . اعتصر جسدها فلفحته رياحه الساخنة العاتية من براكين الصدر والبطن والساقين . أطبق على شفتيها فانطلقت الحمم تصهر كل

الموجودات . اعتصرها فلم تقاوم . لكنها عندما أحست بتسلل يده تخلصت من أحضانه بهدوء وهى تفتح عينيها هامسة :

ــ ألا يكفى هذا العربون ؟

ــ إنه الجنون نفسه !

حاول احتضانها مرة أخرى لكنها أوقفته بحسم هذه المرة :

ــ أخشى أن يعودا فنفسد كل شىء !!

ــ شربت رشفة لأرتوى فكاد العطش أن يقتلنى !

ــ سأكون ملك يديك .. ولن يعرف العطش طريقه إليك !

ــ فليذهب المنجلاوى إلى الجحيم حتى أتذوق طعم النعيم !

ــ هيا يا سنارة .. قبل أن يسرقنا الوقت !

ــ الزمن كله يتلاشى فى وجودك !

ــ هيا يا حبيبى !

قالتها ودفعته برقة إلى الباب الذى فتحته ثم أحضرت المصعد إليه وأدخلته فيه وهو كالمنوم .

عادت إلى شقتها التى أغلقتها خلفها . ارتمت على أقرب مقعد وهى تقول لضميرها :

ــ طالما أننى أملك الدليل .. فلا يهم من يطبق العدالة .. وإن كان سيد قد تعلم غير ذلك فى كلية الحقوق !!

١٨

كان صباحا لم تظهر له شمس . اصطحب المنجلاوى كلا من سيد ونرجس فى سيارته السوداء الفارهة بعد أن وضع بنادق الصيد فى حقيبتها الخلفية . تضاعف قلق المنجلاوى فبدا فى أسلوب قيادته للسيارة . جلس سيد إلى جواره فى حين قبعت نرجس فى الخلف وهى تتحرق شوقا للسؤال عن سر تغيب سنارة . فى الصباح هبط المنجلاوى من فيلته أعلى العمارة وأصر على اصطحابهما فى سيارته تجنبا لملل الطريق . لم تدر نرجس سببا لكآبة المنجلاوى وقلقه ، لكنها لم تكن أقل منه قلقا بسبب سنارة ، حتى سأل سيد المنجلاوى :

ـــ أين سنارة ؟! إن هذا اليوم يومه ؟!

حل التعجب محل القلق على وجه المنجلاوى عندما قال :

ـــ إنه يقيم فى فيلا المعادى كما تعرف .. وسيقود عربته من هناك إلى بحيرة قارون .. ومن المحتمل أن نقابله فى الطريق !

استرخت نرجس فى مقعدها وبدأت فى متابعة المشاهد خارج زجاج النافذة . أما سيد فقد قتله الحنين لزيارة « دار الرماد » بمجرد أن تركت السيارة الطريق الصحراوى لتشق الطريق الزراعى الذى ذكره بالمداخل المؤدية إلى قريته . للمرة الثانية يجتاحه الحنين « لدار الرماد » منذ أن غادرها العام الماضى بعد وفاة أبيه برغم قسمه أنه لن يعود إليها مرة أخرى . لكنه الآن يتمنى لو انطلق المنجلاوى إلى « دار الرماد » . فقد ماتت رغبته فى حلم صباه القديم الذى علق بخياله منذ حكايات أبيه

عندما كان يصطحب السادة الإقطاعيين عند اشتراكهم فى مهرجان صيد البط عند بحيرة قارون . عرف سيد كل شيء عن البحيرة والمهرجان برغم أنه لم يذهب إلى المكان من قبل . حتى رحلات المدرسة إليه لم يكن قادرا على دفع رسم الاشتراك فيها . ومع ذلك فإن حبه للمعرفة دفعه إلى الإلمام بكل تفاصيل المهرجان مثل أفواج البط المهاجرة من أوروبا إلى منطقة الدلتا وبحيرة قارون فى ديسمبر ويناير لدفء الشتاء المصرى فى هذه الفترة من السنة ، ومشاركة جنسيات كثيرة فى الصيد ، يشكل فيها الإيطاليون أغلبية لا يستهان بها ، ذكرت سيدا بالحسناء الإيطالية التى تسببت فى دخول سنارة السجن سبع سنوات نتيجة لرصاصته الطائشة فى قلب بواب نادى الرماية ، والتى ذكرت سيد بمعلوماته عن خرطوش البط الذى يمكن أن يقتل إنسانا من مسافة عشرة أمتار إذا كان التصويب عمدا .

ترك سيد نفسه نهبا للذكريات المتكالبة عليه . لكن وسط هذه الذكريات برز تساؤل لم يخطر على باله من قبل ، تساؤل عن معنى هجرة أفواج البط وطيرانها آلاف الأميال من أوروبا إلى بحيرة قارون كى تسقط أخيرا صريعة رصاص الصيادين والقناصة ؟! هل يمكن أن يجسد هذا معنى رحلة الإنسان فى الحياة نفسها ؟!

أما نرجس فكانت نهبا لتساؤلات لا حصر لها : هل يمكن أن يتغيب سنارة اليوم كله ؟! وإذا فعل فلماذا ؟! وإذا جاء هل ينفذ ما اتفقا عليه ؟! هل يمكن أن يخطئ التصويب برغم مهارته التى لا تبارى فى الرماية ؟ هل سيكون سيد قريبا من المنجلاوى بحيث يصعب التفريق بينهما ؟ هل اقتنع سنارة بخطتها أم أنه تظاهر بذلك ؟ هل يمكن أن يكون

قد وشى بها عند المنجلاوى حتى يزيد من أسهمه عنده ؟ لكنها شعرت برغبته العارمة فيها ولا بد أنه سينفذ الاتفاق ! وخاصة أن المنجلاوى فى جلسته أمام مقعد القيادة يبدو قلقا مهتزا على غير عادته ! هل يمكن أن يكون سنارة قد هرب أخيرا من المعلم المنجلاوى كى ينجو بجلده كما قال لسيد عند بدء اشتغاله معه ؟!

كلها تساؤلات تكالبت على نرجس فلم تحر جوابا . كل ما جلبته عليها هذه التساؤلات أنها شعرت أنها لعبت لعبة خطرة لا يعلم نتائجها سوى الله . ولولا أنها عاشرت الخطر وصادقته لما كان فى إمكانها اللعب به . إن لعب الإنسان بالخطر أفضل ألف مرة من لعب الخطر به !!

أما المنجلاوى فكان نهبا لخاطر واحد أقض مضجعه وتجسد فى ذلك الفتى المصاب فى جمجمته . ماذا لو أفاق وحكى للشرطة قصته ؟ إنه لا يزال راقدا فى غيبوبته تحت حراسة الشرطة فى مستشفى القصر العينى . من أجل هذا أرسل إليه بالأمس فقط من يستطيع أن يقضى عليه حتى لا يقض مضجعه أكثر من هذا ! لكنه لم يعد أو حتى لم يخبره تليفونيا بنجاح مهمته ! هل يمكن أن يكون قد فشل وقبض عليه الحراس المنوطون بحراسة المصاب ؟ إنها عندئذ ستكون الطامة الكبرى إذ أنه لا بد أن يعترف فى النهاية التى ستكون نهاية المنجلاوى وأسطورته . ربما جبن من أرسله للقيام بالمهمة وتخلى عنها تماما وخجل من أن يريه وجهه ؟! فلو كان قد وقع فى قبضة الشرطة واعترف ، لما كانت الشرطة لتنتظر حتى الصباح للقبض عليه ، ولكان الآن فى السجن بدلا من توجهه إلى بحيرة قارون لممارسة الصيد والرماية !

كلما توغلت السيارة فى طريقها إلى البحيرة كان قلب سيد يرفرف

كالحمامة . هل لأنه على أبواب الحلم القديم : حلم السيادة ؟ هل لأنه يقترب من مسقط رأسه ومهد طفولته وصباه ؟ لكن حبل الذكريات والخواطر والتساؤلات انقطع بسؤال المنجلاوى لسيد :

ــ أظن أنها أول مرة لك تزور فيها البحيرة ؟

ــ نعم ..

ــ أعجب لفيومى لم ير البحيرة حتى هذه السن ؟!

ــ كل شيء قسمة ونصيب يا معلم !

ضحك المنجلاوى ضحكة فقدت رنينها المجلجل وقال :

ــ مكتوب لك أن تراها على يدى !

بلغت السيارة مفترق الطرق عندما يتفرع الطريق يسارا إلى سنورس ، ويمتد مستقيما إلى البحيرة حيث تغطى الحقول والمزارع الأرض حتى أوبرج الفيوم ، ثم الطريق السياحى إلى عين السيليين ، حيث تمر السيارة بجبل الزينة على اليسار وبالبحيرة نفسها على اليمين . ظهرت الشمس واهنة ضعيفة للحظات ثم تركت مكانها مرة أخرى للغيام الذى يحيط الكون بلونه الفضى الرمادى الذى يضاهى عينى نرجس التى انزوت فى مقعدها وآثرت الصمت .

على البعد سمعت طلقات البنادق وصرخات البط التى أثارت المخاوف الدفينة داخل نرجس . هل قتل بطة أكثر إثارة للشجن من قتل إنسان ؟ نعم . فالبطة بريئة لم تؤذ أحدا ولا تعرف الشر ومع ذلك لا يرحمها الصياد الذى يستمتع بمنظرها وهى تسقط مضرجة فى دمائها ! أما الإنسان الشرير الذى يتفنن فى تعذيب الآخرين والقضاء عليهم ، فإن التخلص منه يصبح ضرورة إنسانية !

توقف المنجلاوى وسط طوابير السيارات الرابضة بالقرب من الكازينو المطل على البحيرة . مسحت نرجس السيارات بعينيها فلم تستطع تمييز سيارة سنارة . هبط الثلاثة من السيارة . أحضر المنجلاوى بندقيتين من حقيبة السيارة وصندوق الخرطوش الخشبى ، فى حين بدا العرج واضحا على ساق سيد المصابة . أحست نرجس بارتعاشة فلم تتبين إذا كانت نتيجة للفحة الصقيع التى لسعت ساقيها بعد دفء السيارة ، أم نتيجة للخوف من شيء مجهول لا تدرى كنهه ؟! تفحصت الواقفين والسائرين والسيارات قدر إمكانها فلم تجد ظلا لسنارة أو لسيارته !

دخل ثلاثتهم الكازينو . كل يحمل بندقيته فى حين حملت نرجس الصندوق الخشبى للخرطوش . تصاعد ضجيج الطلقات والصرخات مع رذاذ خفيف بدا على الخدود مثل الدموع . داخل الكازينو كانت هناك جلسة ومطعم على شاطئ البحيرة التى وقعت عليها عينا سيد لأول مرة فبدت كئيبة داكنة أكثر مما تخيلها فى صباه . كانت أمواجها الرمادية القاتمة هادئة قرب الشاطئ لكنها معربدة طائشة فى الداخل مع ريح حملت الرذاذ فى اتجاهات متضاربة مع ضحكات القناصة وصرخات البط وطلقات البنادق . بعضهم اكتفى بالوقوف على الشاطئ وممارسة هوايته ، فى حين ركب البعض الآخر قوارب متوغلين داخل البحيرة ببنادقهم ولهجاتهم ولغاتهم المتعددة التى كانت العربية والإيطالية فى مقدمتها .

جلست نرجس إلى إحدى موائد المطعم بمفردها راضخة للإحباط الذى أكد لها أن سنارة لن يأتى لسبب ما ، وذلك برغم تأكيد المنجلاوى

لسيد بأنه لا بد أن يكون فى الطريق . ابتعد سيد والمنجلاوى الذى اقترح ركوب قارب والتوغل داخل البحيرة لكن سيد ذكره بعرجه وعدم قدرته على السباحة إذا انقلب القارب فى حمية الصيد . اختارا شريطا من الشاطئ غير مزدحم بالرواد وبدءا فى قنص البط . أظهر المنجلاوى براعة لم يتوقعها سيد . لم تفلت منه بطة واحدة فى حين كانت أغلبية طلقات سيد طائشة مما جعل المنجلاوى يعلق منتشيا بالبط الذبيح المتساقط : « إنك فى حاجة إلى إعادة تدريبك على يد سنارة ! » لكن سيدا كان قد فقد الشهية فى مجرد الحوار وتذكير المنجلاوى بأنه كان طريح الفراش لمدة شهر ، ولذلك استمر فى التصويب بطريقة آلية خالية من المتعة أو البهجة .

تحول القلق داخل نرجس إلى سأم فى جلستها المطلة على البحيرة . كان الرمادى سيد الألوان : عيناها ومعطف الفراء الذى تدثرت فيه ، السحب والأمواج وأخيرا سيد الرمادى . مر بائع صحف فاشترت الصحف الثلاث ومجلتين لطرد السأم والعزلة وسط هذا الضجيج الذى فقد كل معنى له . بدأت بصفحة الحوادث والجرائم وهى الهواية التى لازمتها منذ اشتغال سيد مع المنجلاوى . وقعت عيناها على خبر مثير : « اكتشاف سر عصابة الملثم » دق قلبها بعنف وهى تقرأ بصوت داخلى كالصدى :

« استطاع حراس عضو العصابة الذى لا يزال فى غيبوبته فى مستشفى قصر العينى ، القبض على شخص حاول التسلل إلى غرفته متخفيا فى زى ممرض وحاملا زجاجة صغيرة بها سم قاتل . وباستجوابه حتى ساعة متأخرة من الليل أدلى باعترافات مذهلة وإن كانت متناقضة حول الرأس المدبر لهذه العصابة الذى يحمل أسماء عديدة ويعيش فى

أماكن مختلفة وتقدر ثروته بالملايين . وقد تم وضع خطة محكمة بهدف القبض عليه فى الساعات القليلة القادمة ، بعد أن أرسلت أوصافه إلى المطارات والموانئ حتى لا يهرب إلى خارج البلاد » .

قرأت نرجس الخبر عدة مرات : مرة بعينيها وأخرى بلسانها وثالثة بشفتيها ورابعة بعقلها . اختلط داخلها إحساس السعادة بالخوف : السعادة لانتهاء أسطورة المنجلاوى والخوف لأن التحقيق لا بد أن يمتد إليها هى وزوجها ! لكنها حمدت الله على أن سنارة لم يحضر لتنفيذ الخطة المتفق عليها ، فهى تريد أن تتشفى فى المنجلاوى حيا مهما كانت النتائج التى قد تصيبها ، ويكفى أن ضميرها سيكون متحررا من وطأة قتل هذا الوحش .

تركت نرجس الجريدة ونظرت إلى حيث كان سيد والمنجلاوى يواصلان الصيد . ووسط الطلقات والصرخات دوت طلقة أحدثت نشازا أعقبته صرخة ذبيحة غير صرخات البط . كانت صرخة سيد وهو يسقط مضرجا فى دمائه التى سالت على حافة البحيرة وامتزجت بمياهها . ردت نرجس بصرخة مدوية وهى تجرى وتحتضنه وتلطخ ملابسها بدمائه ، وتعوى فى المنجلاوى الذى وقف كصنم لا يعبر عن أى إحساس من الأحاسيس التى عرفها الإنسان منذ بدء البشرية .

(تمت)